

يوسف القعيد

يحدث فى مصر الآن

يوسف القعيد

يحدث فى مصر الآن

الطبعة الرابعة



دار المستقبل العربي

الغلاف من تصميم الفنان بهجت عثمان

يحدث فى مصر الآن :

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : القاهرة . طبعة على نفقة المؤلف مارس ١٩٧٧

الطبعة الثانية : دار ابن رشد ، بيروت ، ١٩٧٩ .

الطبعة الثالثة : دار الأسوار ، عكا القديمة ، فلسطين المحتلة

ترجمت إلى الروسية وصدرت فى طبعتين الأولى عن دار الأدب والفن والثانية عن دار رادوجا

الطبعة الرابعة دار المستقبل العربى القاهرة ١٩٨٦

كلمة سريعة بين يدى الطبعة الرابعة

سألنى كثيرون ، عندما عرفوا أن دار المستقبل العربى بصدد إصدار طبعة جديدة ــ هى الطبعة الرابعة ــ من روايتى : يحدث فى مصر الآن .

إختلف السائلون ، وتنوعت الكلمات ، وطالت بعض الأسئلة ، وقصر بعضها الآخر ، ولكن جوهر التساؤلات كان واحداً :

ــ ماذا عن كلمة الآن ؟ وفعل يحدث المضارع ؟!

ويتحول السؤال إلى اقتراح :

ــ لم لاتسميها حدث فى مصر ١٩٧٤ ؟

ويأتى الشرح أخيرا :

ــ إن اثنتى عشرة سنة من عمر شعب تغير كل مافيه .

أعرف أن الزمن يجرى ، وكلمة الآن نفسها افتراض بشرى ، ففى اللحظة التى أنطق فيها حروفها الأربعة يكون هذا الآن قد أصبح ماضيا تاما .

وأعرف أيضا أن المسألة ليست الزمن فى سريانه ، فالآن هنا كلمة سياسية . والسؤال هو : هل الآن الذى تحدثت عنه فى الرواية ، وهو سنة ١٩٧٤ لايزال قائما أم لا ؟

لو أن ظروف الأوطان تتغير بالأحلام ، فلا أعتقد أن هناك لجيلى أكبر من أن يصبح آن هذه الرواية ماضيا لاوجود له . إنها الأمنية الضخمة ، ومن ضخامتها لايستطيع الانسان حتى أن يحلم بها ، خاصة بعد أن فقدنا القدرة — حتى على الحلم — منذ سنوات مضت .

تحول سؤال الأحباء والأصدقاء ورفاق المحنة والهم والطريق والقضية . الى سؤال لى ، ولكن بعد أن أعدت صياغته بطريقتى الخاصة :

— ماذا عن الحلم الأمريكى الذى جاء الى بر مصر مع الرئيس الأمريكى المطارد بوهج ورذاذ فضيحة «ووترجيت» ؟!

نظرت حولى ، إستعدت من طفولتى البعيدة عينيها ، لكى أرى بأكبر قدر من الدهشة ، وحتى أتمعن بصورة غير عادية ، فى كل ماأصبحنا نراه وكأنه من الأمور العادية . حاولت رؤية بلدى وكأننى أراها لأول مرة . بكل مافى المرة الأولى من البكارة .

إكتشفت أن آن ٧٤ هو نفسه آن ١٩٨٦ ، وأن العصر الأمريكى ممتد ، والعرض المسرحى الأمريكى مستمر على بر مصر . وأن السنوات الإثنتى عشرة من عمر بلادى ، جعلت الاستثنائى أمراً عاديا ، والعارض مستمرا ، والمرفوض باقيا ، بل إنه — وأنا حزين لمجرد أننى أكتب هذا بخط يدى — أن هذا المرفوض يقف على أبواب القبول من كثرة التعود عليه .

فكرت وقررت أن يبقى العنوان كما هو ، ليس لأنه كان العنوان الذى صدرت به الرواية من قبل . ولكن لأن آن ١٩٧٤ لايزال هو نفسه الآن فى ١٩٨٦ . وفعل يحدث هو هو : يحدث ولم يتحول بعد الى حدث طوال هذه السنوات التى مضت .

يبقى مايعنينى شخصيا ، هذه هى الطبعة الرابعة من «يحدث فى مصر الآن» . وهو مايحدث بالنسبة لى للمرة الأولى . أول طبعة منها صدرت هنا فى

مصر ، حيث بقى المؤلف طوال عقد السبعينات ، كانت طبعة بسيطة ومتقشفة ، أصدرتها على حسابى الخاص ، بعد أن رفض الكل طبعها .

ولا أدرى إن كان ذلك الناقد الذى نسيه قطار التاريخ على أرصفة الزمن الماضى ، يعرف هذه الواقعة أم لا ، ولست متأكدا إن كانت معرفته أو جهله بهذه الواقعة هو الذى دفعه الى القول ، من فوق مقعده فى أحد المقاهى . وأمامه منضدة ملوثة ، عليها زجاجات البيرة الفارغة على شكل هرم وهمى . قال والكلمات تتلكأ فى فمه من شدة السكر :

— إن يوسف القعيد يكتب أصلا لكى يرضى الناشرين .

هل يعرف ؟ هل لايعرف ؟ لست أدرى ولكننى أدعوه فقط لكى يهجر كهوف الماضى وأن يحاول ، يحاول فقط ، اللحاق بعصرنا .

ذلك هو خلاصه الوحيد .

عموما ماعلينا ، نعود إلى الرواية ، ونكمل أن الطبعة الثانية صدرت فى بيروت ولم يصل الى مصر نسخ منها ونفدت فى الخارج كلها . والطبعة الثالثة صدرت فى فلسطين المحتلة ، أصدرها المناضلون الفلسطينيون ، أبناء أشرف ثورات قرننا العشرين ، رغم أنف العدو الصهيونى ، ولم أتمكن ، حتى لحظة كتابة هذه الأسطر من الحصول على نسخة واحدة منها . تبقى فى مكتبتى الخاصة ، تقاوم ذلك الغول القادم الذى سيأكلنا جميعا بداخله . والذى اسمه : النسيان .

هاهى «يحدث فى مصر الآن» ، تعود الى مصر ، فى طبعة جديدة ، تصدرها دار نشر صاحبة موقف وقضية وهم يؤرق القائمين عليها .

لقد لفت الرواية ودارت عبر اثنتى عشرة سنة كاملة ، ومع هذا عادت لتجد أن «الآن» . نفس الآن القديمة تقف فى استقبالها على أبواب مصر .

وإن كان الزمن الأمريكى موجود الآن فى بر مصر ، فلابد وأن يأتى آن

آخر ، من قلب الغد الآتى ، يجعل «آن» هذه الرواية ماضيا تاما . وعلى أمل الوصول الى هذه اللحظة أحيا وأكتب باصرار .

أعتقد أننا لن نكتفى بانتظار هذا الذى سيجىء الينا ذات يوم ، مهمتنا أن نسافر اليه ونجده . وإن لم نجده ، نخلقه خلقا .

يوسف القعيد

الضهرية — بحيرة
القاهرة — مدينة نصر ٠ فبراير ١٩٨٦

يحدث فى مصر الآن

بقلم الدكتور : على الراعى

لأن حدثاً سياسيا غير عادى قد حدث فى مصر ، إبتكر يوسف القعيد شكلا روائيا غير عادى للتعبير عنه : رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، الذى كانت فضيحة ووترجيت تطارده ، والذى كان يترنح تمهيدا للسقوط بعد أيام قرر أن يزور مصر . لماذا مصر ؟ أبواب الاجتهاد مفتوحة . ربما لأنه كان واثقا من حسن استقبال مصر الرسمية له . فقد كانت مصر الرسمية آنذاك فى مرحلة ترنح هى الأخرى . ولربما قال الرسميون المصريون لأنفسهم آنذاك : لو استند مترنح على مترنح ثان فقد يسند أحدهما الآخر ، وينجو كلاهما . ويفوزان بالثبات ؟ .

على كل حال اعتبرت زيارة نيكسون لمصر أضحوكة تثير الدهشة . إعتبرت هكذا فى الولايات المتحدة ذاتها . ولم يفهم الأمريكيون — رسميون وغير رسميين — لماذا تفتح مصر الرسمية ذراعيها مرحبة برجل تطارده دولته بأجهزتها جميعا . ويجرى وراءه الرأى العام ، ساخطا مستنكرا ؟!

ومن باب الشهامة الشعبية المصرية — لاغير .. ! — قرر يوسف القعيد أن يكتب روايته هذه ، ليريح بال المتعجبين الأمريكيين وغير الأمريكيين ، ولأن زيارة نيكسون قد دخلت من باب اللامعقول ، فقد أصبحت السخرية هى الوسيلة المثلى لمعالجة التعبير عنها ، وعن الاستقبال الذى أعدته مصر الرسمية للحفاوة بها .

***

على طريقة العروض الشعبية ـــ مقدم برامج السيرك مثلا ، أو الراوى ـــ المقلد فى المسرح الشعبى ، يتصدر يوسف القعيد روايته ، بشخوصه ، بشحمه ولحمه ، ليخبر قراءه أنه بسبيل تأليف رواية عما يحدث فى مصر الآن . ويدعوهم الى المشاركة فى تأليفها ، مستفيدا بهذا من أسلوبى الفن المرتجل وفن المشاركة ، اللذين تلجأ اليهما العروض المسرحية لربط الناس بأحداث العمل الفنى .

وبعد مقدمته غير العادية هذه يمضى يوسف القعيد قدما ليسلم القراء أهم أسرار روايته ـــ السر الذى تتمحور حوله أحداث العمل : فقد مات عامل زراعى إتهم بأنه اعتدى على طبيب الوحدة الصحية فى قرية الضهرية . سر كان ينبغى أن يبقيه المؤلف لقرب النهاية حفاظا على مبدأ « التشويق والشد » فى التأليف التقليدى .

غير أن يوسف القعيد ليس محتاجا لهذا التشويق ولا ذلك الشد ، فهدفه من عمله ليس مجرد رواية أحداث وإنما فحصها وتأملها واستخراج النتائج منها ، والعبر !

والعبرة الكبرى التى تتخلص الينا من هذا العمل الساخر هى أنه إذا سولت لأحد من أشباه الآدميين نفسه ان يتطاول فيناطح السلطة وممثليها فانه مهدد ، ليس فقط بالعقاب التقليدى : السجن مثلا ، بل هو عرضة لأن يفقد وجوده ذاته . ليس وجوده الآن وحسب ، بل وجوده أصلا !

ان ضابط الشرطة فى قرية الضهرية يجد نفسه بإزاء موقف صعب . فقد قبض على العامل الزراعى دبيش عرايس وضرب وعذب حتى مات . فماذا يكون الموقف بإزائه ؟ . هل يمضى فى التحقيق حتى تظهر الحقيقة الكريهة ؟ أم يكفى على الخبر ماجورا ، ويتستر على تصرفاته وتصرفات صديقيه : طبيب الوحدة ورئيس القرية ؟

ـــ يقرر الضابط أن الستر أولى بالجميع ، ويمضى فيوجه التحقيق الى أحد احتمالين : لقد هرب العامل الزراعى بعد جريمته النكراء ـــ تحدى السلطة الشرعية ، وانضم الى زمرة الخارجين على القانون . ومن ثم فإنه هو الجانى وليس المجنى عليه . المجنى عليه حقا هو الطبيب الذى تحمل الإهانة من شبه الآدمى هذا ، فى زمن ردىء أصبح للكلاب فيه سعر واعتبار .

أما الاحتمال الثانى فهو أن الدبيش عرايس هذا لم يكن له وجود . هو وهم . أسطورة . والا : فما الدليل على أنه قد عاش يوما ما ؟ إسمه غير موجود لا فى سجل المواليد ولا فى سجل الوفيات . ليس له بطاقة شخصية أو عائلية أو تموينية . وزوجته لا تستطيع أن تثبت أنها زوجته . لا يوجد عقد زواج رسمى . ولا صورة تذكارية للزفاف . لم يشترك الدبيش المزعوم فى النشاط السياسى . لم يحمل أولاده الى المدرسة . لم يصله خطاب يوما ما ... باختصار هو شخص وهمى . ولا يبعد أن يكون مجرد حيلة لجأ اليها أعداء البلاد لإلهاء الحكومة عن أداء واجبها الوطنى فى هذا الظرف الدقيق الذى تمر به بلادنا : زيارة أكبر رجل فى العالم لمصر .

يتم كشف هذه الحقيقة الهامة ـــ حقيقة أن الفرد مهدد بأن يشطب من سجل الأحياء اذا ماأبدى جانب المقاومة ـــ فى إطار صورة تفيض بالسخرية وتمعن فى فضح الخطأة وتعريتهم تعرية كاملة . ترسم الصورة مصر الرسمية كلها وقد احتشدت لتلقى الشرف الكبير : زيارة الرئيس الأمريكى . المسئولون يسيل لعابهم لمصافحة الضيف الكبير ، أو تقديم الهدايا له ، أو ـــ فى القليل ـــ التمتع بأن يقف قطاره السعيد لحظات على رصيف محطة بلدته . والأحلام الفردية والجماعية تنطلق مجموعة .

رئيس القرية يحلم بالمنصب الكبير . محافظ مثلا أو ماهو أقل من هذا

قليلا . وغيره لاتنقصهم الأحلام . وفى وسط هذه الهيستيريا الجماعية يظهر نصاب ذكى يبيع الوعود لمن استبدت بهم الأحلام . يقبض ثمن استغلال صلات غامضة له كى يجعل قطار الأمريكى الكبير يتوقف هنا وهناك حاملا معه الوعود بالترقى .

والمعونة الأمريكية : الدقيق والسمن والجبن واللبن تقلب قرية الضهرية رأسا على عقب . طريقة توزيعها والأسس التى يتم وفقها التوزيع تلقى نورا ساطعا على حقيقة مايجرى فى القرية . الأغنياء فقط هم الذين ينالون أوفر نصيب منها . القوى الاجتماعية الرجعية مازالت تملك ناصية الأمور فى القرية . الباشوات السابقون والاقطاعيون الجدد على أوثق صلة بالجهاز الحاكم داخل القرية وخارجها . إذا ماحاول معدم مثل الديش عرايس أن يتحايل كى ينال نصيبا ضئيلا ، طالته يد البطش الطويلة ، وانتهى أمره الى ظلام قبر مجهول فى جهة غير معلومة ، ثم طاردته من بعد شائعة أنه كائن لم يكن .

وترسم الرواية صورة واقعية للفلاحين بإزاء السلطة . لايملكون الا الثورة العاجزة وعبارات : « الله ينتقم من الظالمين » . « لهم يوم . واليوم قريب » . « إنه القضاء والقدر » . فإذا ذهبوا الى أجهزة رعاية المواطنين فالروتين كفيل بأن يخرج أيا منهم من رحمة الدولة . وأول هؤلاء ديش عرايش وزوجته وأولاده .

وتضيف الى عجز العاجزين تواطؤ شهود الزور الذين هم على استعداد دائم للتوقيع أو الختم أو البصم على مايطلب منهم . هؤلاء فلاحون أو موظفون صغار يخونون أنفسهم إذ هم يخونون زملاءهم من الضحايا . ومن بين الخونة ذلك الشاب الهازل ، الذى نصح الفلاحين بأن يلجأوا الى القضاء ضد نيكسون مطالبين إياه بالتعويض ، فقد أدت زيارته لمصر إلى ماحدث للديش عرايس وأسرته . إن هذه القضية كفيلة بأن تجعل « الضهرية » قرية سياحية ، تهتم بها

أجهزة الاعلام . وتقوم فيها مصانع المعلبات والسجاد ويجرى البحث عن البترول فى أرضها وتبنى على مياهها شاليهات للسواح . وهكذا تفيد القرية وتفيد زوجة الديش عرايس من عصر الانفتاح .

***

رغم تفجير حدود فن الرواية ، وظهور المؤلف وتعليقاته المتكررة ، يظل العمل المسمى : « يحدث فى مصر الآن » عملا روائيا فى المحل الأول . تسجل له بساطته الشديدة فى الفضح واللذع والتندر ، ويحمل فى أرجائه أنفاسا من فن جوجول فى « المفتش العام » وشيئا من كابوس كافكا فى « المحاكمة » وشبها قريبا من توفيق الحكيم فى « يوميات نائب فى الأرياف » . ومع كل هذا الانتساب ، يظل للعمل طابعه الخاص : قدرة يوسف القعيد على الفضح دون زعيق ، والإدانة دون خطابة ، والانحياز إلى جانب الفقراء والمعدمين دون تحيز لهم .

إن « يحدث فى مصر الآن » هجائية سياسية ممتازة تنبع من القرية المصرية موضوعا وشكلا وتثبت أن الرواية السياسية تستطيع أن تكون ضاحكة حيناً ، ساخرة حينا ، دون أن تفقد شيئا من جديتها . بل لعلها تزيد من عمق هذه الجدية بالتناول الذى يبدو سهلا ولكنه لايلبث أن يغوص إلى أعماق القارىء .

د .. على الراعى

عجيب لمن لايجد القوت فى بيته . .

كيف لايخرج على الناس شاهرا سيفه

أبو ذر الغفارى

الكتاب الأول

حضرة الضابط .

رئيس مجلس القرية .

طبيب المستشفى .

وآخـرون .

بدلا من المقدمة المثيرة

بمجرد أن تقع عيناك على أول هذا السطر ، وحتى تصل الى كلمات النهاية فى ذيل الصفحة الأخيرة ، تكون قد قامت بيننا علاقة تدور حول رواية نقوم بخلقها معا . عما يحدث فى مصر الآن . لا أعرف مدى سرعتك فى القراءة . ولكن من المؤكد أنه فى الوقت الذى تستغرقه قراءة هذه الرواية منك . سيحدث فى مصر الأخرى ، مصر الريف والفلاحين الكثير . يحتاج تدوينه لمجلدات ، وحكايته لملايين الأفواه والألسن .

قلت أننا نخلق رواية . ما من رواية الا ولها بداية . ولكنى فى الصفحات البيضاء المخصصة للمقدمة أو المفتتح بلغة المجددين من قصاصى زماننا . سأبدأ روايتى على الفور .

وبدايتها أقول :

إتصل رئيس مجلس قرية الضهرية تليفونيا بمعاون نقطة بوليس التوفيقية مباشرة ، متخطيا بذلك عمدة البلد . أبلغه باعتداء عامل زراعى على طبيب الوحدة وسبه علنا فى مقر عمله الرسمى أثناء تأديته لمهام وظيفته أمام شهود . والسبب قيام العامل الزراعى بعملية تزوير ثابتة عليه .

ضحك الضابط الشاب ، استراح فى جلسته ، عاتب صديقه لعدم السؤال عن الصحة والحال . سأله عن أحوال البلد وأخبار منحل الوحدة ومشروع تربية الدواجن . فى نهاية الدردشة الهادئة التى تخللتها بعض الأسرار الخاصة . طلب الضابط من رئيس القرية أن يرسل العامل الزراعى عن طريق العمدة ، مع مخصوص ، وسيتولى هو الباق . اعترض رئيس القرية . فهو لايحب العمدة وبينهما خلافات ولا يرغب فى جعله طرفا فى الموضوع وتدخله يهز هيبة المجلس فى نظر الناس ..

ــ وما الداعى لكل ده . أنا لن أرسله لاتخاذ اجراء رسمى ضده . المطلوب تأديب العامل فقط

خدشت أذن رئيس القرية ضحكة الضابط المجلجلة من الناحية الأخرى :

ــ فهمت قصدك .

ــ تمام ؟

ــ إبعته وحا أوريه أن عين الحكومة حمرا .

إنطلقت سيارة مجلس القرية . وهى فى الأصل سيارة الاسعاف الخاصة بالمستشفى بسرعة . متجهة نحو التوفيقية . بداخلها العامل الزراعى . معه ساعى المجلس الذى كان ممسكا بمظروف حكومى . بداخله خطاب رقيق « شخصى جدا » من رئيس القرية للضابط . فى الطريق تهرب الساعى خوفا من تساؤلات أطلت من عينى العامل الزراعى وبدا كمن يجد لذة فى مشاهدة شريط الخضرة الذى يبدو من نافذة السيارة . وقف العامل الزراعى مطأطىء الرأس أمام الضابط الذى لم يجد نفسه بحاجة لأن يريه أن عين الحكومة يكاد أن يبك منها الدم . سأله الضابط عن اسمه وبلدته وعمله . لم يرد عليه . كان متعبا . رد ساعى المجلس نيابة عنه . موضحا أن بينهما قرابة بعيدة من جهة الأم . استند العامل الزراعى على سور الحجز من شدة التعب . أشار الضابط

للعسكرى بيده فسحبه الى داخل الحجز . عادت سيارة الاسعاف الى القرية وبها الساعى وحده ، بيده خطاب أكثر رقة من معاون النقطة لرئيسه .

ذهب الضابط الى مسكنه المواجه لنقطة البوليس ، وجلس العسكرى على مكتب الضابط بعد أن أغلق الحجز على العامل ومن كانوا فيه من قبل . نزل على النقطة هدوء لا طعم له . وفى سماء الله العالية أكملت شمس بؤونة دورة اليوم . وتحولت الى الناحية الغربية واستطالت الظلال وبدأ اليوم ينحدر نحو نهايته .

أتى المساء ، كنس بنسماته الطرية حرارة اليوم ، استيقظ الضابط من غفوة القيالة وتعسيلة العصارى معا . جلس فى شرفة الاستراحة البحرية ، بين يديه جريدة وأمامه كوب شاى . بالقرب منه الطريق الزراعى السريع مصر اسكندرية . لم يستطع متابعة القراءة بسبب أصوات السيارات السريعة . التى أيقظت بداخله شوقه الدائم للمسرات الليلية فى المدن البعيدة . زحفت عليه غبشة المساء واستقر بداخله ليل طويل قادم فتنهد .

فى الاسكندرية كان رئيس مجلس القرية يجلس فى أحد أماكن العشق والمحبة مع خطيبته . ولأنه منسق الهندام وياقة قميصه الأبيض منشاة وجلد ذقنه الحليق يبدو لامعا . راح يحدثها عن حالة الجو وعن عمله رئيسا لعشرين ألفا من الفلاحين . وسلطاته ومستقبله . فى ذروة الحماس عاتبها بحرارة لأنها لا تفكر فى زيارة مملكته الجميلة . لم ترد عليه . ابتسم وعبر لحظة الصمت الطارئة ، عاود الكلام ، وردت حكاية العامل الزراعى الذى حاول الاعتداء على طبيب الوحدة . أفاض فى شرح الاجراءات الرهيبة التى اتخذها قبل حضوره ، والتى تسببت فى تأخيره ساعة كاملة عن موعد عودته اليومى الى الاسكندرية . سريعا فرض الصمت نفسه عليهما ضيفا غير مرغوب فيه ، قبل أن تعلن ليالى صيف الاسكندرية المنعشة عن نفسها . أبدت الخطيبة رغبتها فى القيام ، وافق رئيس القرية مضطرا . فى طريق العودة . أدرك أن الخمس عشرة سنة التى

تقف بينهما حقيقة مؤكدة وليست جدارا من الورق كما همس لنفسه عندما اهتز القلب بعنف لها .

طبيب الوحدة الذى اعتدى عليه العامل الزراعى وقت الظهر . قضى يومه معتكر المزاج ، لم يستمتع بنومة القيالة . ذهب الى الاخصائى الاجتماعى ، حدثه عن صعوبة الحياة هنا . قال أنه لامبرر لوجوده هو وزملائه فى الريف . انتقد الحكومة بسبب تقصيرها فى حقهم . اقترح أن يضاف لمرتباتهم بدل جديد ، اسمه بدل التعامل مع أنصاف البشر من الفلاحين . تسللت المرارة واستكنت فى أحرف كلماته لأول مرة . قال أنه اضطر للتفكير فى السفر خارج البلاد بعد حادث اليوم . طمأنه الاخصائى الاجتماعى وهدأ خاطره . وقت الغروب نزل الطبيب الى البلد ووراءه أربعة من التومرجية . كشف على بعض الحالات التى لاتذهب الى المستشفى مفضلة أن يحضر لها الطبيب ويكشف عليها كشفا خصوصيا . نظير جنيه للحالة الواحدة . بعد الكشف قام بالزيارة التى يحرص على القيام بها كل يوم . لأسرة غنية ترغب فى مصاهرته .

المفاوضات تتم بينه وبين الأسرة فى سرية وصمت . منذ أيام لمح الطبيب أثناء زيارته اليومية ، وبشكل غامض . أنه قد يفكر فى فتح عيادة خاصة فى البلد كمحاولة لزيادة دخله . فى صباح اليوم ، أرسلت الأسرة الطموح تقول انها عثرت على البيت المناسب . ذهب اليهم ، جلس قليلا ، عاين البيت ، وافق عليه . عاد الى منزل أصهاره كى يقضى سهرته معهم الى منتصف الليل .

بعد السهرة رجع الى الفيللا المخصصة لسكنه . وقف فى شرفتها البحرية بالبيجاما ، مد يديه ، شعر أنه يغمسهما فى ليل ريفى دسم . تاه عقله فى أبخرة أحلام الأيام القادمة .

بمجىء الليل ، نسيت الضهرية حكاية العامل الزراعى . العائلات الأربع التى كشف الطبيب على مرضاها . اعتذرت له عما حدث ، دون أن تعرف

التفاصيل ، طلب بعضهم منه ان لايتنازل عن حقه . هذا الزمان بخل على أولاد الناس بكل شىء . لم يبق سوى احترامهم . فى الحارات وعلى المصاطب اختلفت الآراء . قيل ان العامل مسكين . وقيل انه يستحق ماجرى له واكثر . وان المياه لن تصعد فى العالى أبدا . ولن يستطيع حتى ولا أدهم الشرقاوى أو الزناتى خليفة ان يقولا البغل فى الابريق . تباينت المشاعر بين الألم والخوف والجسارة التى يمنحها الليل للساهرين فيه بسخاء ، اتفقوا على أن ماحدث عادى . تهجم عامل زراعى على الدكتور فلقى جزاءه . لكن ذهنا واحدا لم يحاول فهم ماهو أبعد من ذلك .

بدأ الليل يجر سكونه الموحش وطبقات ظلامه . فى منزل العامل الزراعى الذى لم يعد . انتظرته زوجته وأولاده الثلاثة . ذهبت الى الوحدة تسأل عنه . لم تسمع اجابة واضحة . عادت وخوف طارىء يتحرك بداخلها كدبيب النمل . لحقها الساعى الذى سلمه فى النقطة . حلفها بأقدس الأيمان وبرحمة من ماتوا ان لاتتكلم . حكى لها ماحدث ، فى البيت ، فكرت فى الذهاب الى التوفيقية ، منعها الجيران . طلبوا منها الانتظار حتى الصباح . من الآن وحتى طلوع الشمس لن تجد على الجسر سريخ ابن يومين . حاولت ان تنام . خلال الليل بطوله . كلما خدش الصمت الليلى صياح ديك فى البيوت المجاورة . كانت تهب من نومها . تخرج الى وسط الدار . تنظر ناحية السماء . تجد بريق النجوم واضحا . تعود الى الحجرة الوحيدة بالدار . محاولة أن تنام .

***

المؤلف يسلم القارىء أهم أسلحته

مقدمة الرواية كانت عادية . بعدها يأتى دور أهم أساليب تجار الرواية فى زماننا وهى كثيرة . لكى أضمن شد القارىء الى روايتى وجريه وراء الكلمات حتى تنقطع أنفاسه . يجب أن اعتمد على هذه الأدوات . محتفظا باحدى المفاجآت المذهلة فى ركن ما لما قبل النهاية . لكنى — لأسباب كثيرة — أعلن تنازلى عن كل أسلحة كتاب الرواية القديمة والحديثة على السواء .

فى المقدمة التى لم تكن مثيرة . تركناهم . العامل الزراعى فى نقطة البوليس ، رئيس مجلس القرية فى الاسكندرية ، ضابط البوليس فى استراحته ، الطبيب فى الفيللا . زوجة العامل الزراعى وأولاده الثلاثة يشربون سماء الليل بأعينهم فى انتظار نجمة الفجر .

لكن النهار لم يطلع سريعا .

عند انتصاف الليل . كان العسكرى النوبتجى ، والذى يسمى نفسه فى غياب المعاون ضابط نوبتجى النقطة الثابتة . يدق باب استراحة الضابط وهو يرتعش من الخوف . صحا الضابط من نومه . سأل العسكرى بغضب عن سبب ايقاظه . رد العسكرى . كلماته المبعثرة أيقظت الضابط تماما . آخر

متهم دخل الحجز . العامل الزراعى اياه ، حالته سيئة . قبل أن يستمر تدفق الكلمات بينهما . أسكتهما أنين متقطع يأتى من داخل النقطة . أمر الضابط بنقله الى مستشفى التوفيقية العام . بشكل ودى وبدون حرس .

عندما بدأت ديوك الفجر تؤذن ، مات العامل الزراعى فى المستشفى . وجد الكل نفسه فى ورطة . رئيس مجلس القرية ، طبيب الوحدة ، الضابط ، نوبتجى الاستقبال بالمستشفى ، العسكرى ، الساعى ، سائق سيارة الاسعاف . نقلت جثته فى هدوء ودون علم أحد الى مشرحة المستشفى . سلمت الأمانات التى وجدت معه للضابط ، أربعة قروش ونصف وخاتم وعرضحال تمغة باهت متآكل الأطراف . مكتوب عليه طلب باسم زوجته للحصول على جنيه واحد ضمان اجتماعى شهرى . وعرضحال آخر مقدم منه يطلب فيه العمل خفيرا نظاميا . فى مكان أحد الخفراء الذين أحيلوا الى المعاش . فى ذيل الطلب تأشيرة مكتوبة بلون أحمر . تقول انهم يأسفون لعدم إمكانية تعيينه لأنه ليس عضوا عاملا فى الاتحاد الاشتراكى العربى . حيث أن العضوية العاملة شرط أساسى للتعيين فى هذه المهنة . أخذ الضابط الأمانات ورفض أن يوقع باستلامها وأخفاها بعيدا عن الأعين .

بدأت مباراة رمى فيها الكل التهمة على الآخرين . ولكن الضابط بعد أن حشر نفسه بداخل ملابسه الرسمية . تصلب جسمه . قال انه سيتصرف فى الأمر فورا . أعد نشرة تبليغ عن هروب متهم رهن التحقيق من النقطة . وبذلك يكون الضابط الشاب قد أهدانا مشكورا أحد أسلحة الرواية . وأصول الحرفة كانت تفرض على أن أخفى نبأ الوفاة . من المثير أن أحكى عن اختفاء العامل الزراعى ليلا . ونبدأ مع الضابط مغامرات البحث عنه فى كل مكان ثم نكتشف فى النهاية أنه مات . وستخرج التساؤلات من عين القارىء :

— كيف تم هذا ؟

من أجل الاجابة على كيف هذه ، نبدأ فصولا جديدة مضمونة القراءة .

ولكنى أفشيت أسرارى وكشفت خططى . ومع هذا لا أطلب منك نسيان وفاة العامل الزراعى بل سأذكرك بها كلما تقدمنا خطوة فى الرواية .

سلم الضابط نشرة عن هروب العامل الزراعى للعسكرى ، كلفه بعمل اللازم حسب المتبع ، حاول العسكرى أن يوضح أنه المسئول رسميا عن هروب المتهم الذى لم يهرب . طمأنه الضابط .

— الحكاية تمثيل فى تمثيل ، وبشكل غير رسمى . ثم أننا مسئولون عن الحكاية دى قبلك .

ركب الضابط البوكس واتجه الى الضهرية . انتظر حتى نزل الطبيب من الفيللا فى العاشرة ووصل رئيس القرية من الاسكندرية . أخبرهما بالأمر ، بان الانزعاج على وجهيهما ، ضحك الضابط . قال انه ضبطهما متلبسين بلحظة ضعف نادرة الحدوث . أكد لهما ان كتفيه لايحملان النجوم الثلاث فقط . بل يتسعان لحمل الكرة الأرضية نفسها . وفى محاولة لجلب الاطمئنان سريعا . قرر الثلاثة أن يتناولوا طعام الافطار فى فيللا الطبيب . كان الطعام شهيا ، ولذا تناولوه فى ساعة كاملة . وفى الفراندا التى تطل على بحار متموجة من الخضرة شربوا شاى الصباح . ودخنوا . وتناولوا الموضوع من جديد . وافق رئيس القرية والطبيب على ما قرره الضابط .

نزلوا . ذهب الطبيب الى العيادة فى هذا الوقت المبكر جدا لأول مرة . مما أثار ذعر العاملين ودهشة وعدم تصديق المرضى . اختار رئيس القرية الجلوس تحت تكعيبة العنب التى تفصل القسم الاجتماعى عن المدرسة . جلس على كرسى خيزران ومد قدميه على كرسى آخر . وقف حوله العاملون بالمجلس من موظفين وسعاة وعمال وعددهم يصل الى الثلاثين . وكلهم بدون عمل . همس واحد منهم للواقف بجواره متعجبا من تواضع رؤساء هذه الأيام وحمد الله على هذا . اختار الضابط مكتب رئيس القرية لكى يباشر منه التحقيق . نظرا لفخامته ولوجود تليفون فيه . عند دخوله المكتب لمح الخفراء . وكل الذين طلب سماع أقوالهم .

ابتسم فى سره . وضع العسكرى الاوراق على المكتب أمامه . وفتح الضابط ملفا جديدا . احتار فى كتابة اسم ورقم القضية على الدوسيه . كان سعيدا . ولهذا امتدت يده . وكتب على الغلاف :

— قضية بدون رقم ولم يتحدد لها اسم بعد .

التحقيق الذى فتحه الضابط كان طويلا . وصل الليل بالنهار لكى ينتهى منه بسرعة . لم يكن تحقيقا واحدا . التحقيق الأول حول واقعة عدوان العامل على الطبيب والضرب والسب . والثانى عن هروبه من النقطة ليلا . مع محاولة معرفة مكانه . ولأن التحقيق يتم بهدف الوصول الى الحقيقة والعدل أساس الملك . انتظر الضابط حتى أحضروا كتاب الله . ليحلف عليه الشهود . ذكره العسكرى بأن كل هذا يتم بدون علم مأمور المركز أو النيابة أو حتى عمدة الضهرية . قال له أنه أخبرهم بذلك شفويا .

هاهو التحقيق . على كل تلك ليست بداية الرواية . وانما كانت جزءا منها .

الرواية قد تبدأ الآن .

الضابط يجد نفسه فى مأزق يخرجه منه صديقا العمر

ولكن الرواية لم تبدأ بعد . وقف الضابط واضعا يديه فى جيبيه ، أملى على العسكرى ديباجة التحقيق ، توقف عندما أدرك أن بداية التحقيق لابد وان تكون من الطبيب . وجد نفسه فى مأزق . ذهب الى رئيس القرية وعرض عليه الإشكال . اتجها معا الى حجرة الكشف بالمستشفى ، لم يكن الطبيب هناك ، انتهى من جميع أعماله بالمستشفى وذهب الى الفيللا فورا . وجد الضابط صعوبة فى العثور على أنسب الكلمات . وتعطلت لغة الكلام بداخله . كان محرجا . هل يستدعى الطبيب الى حجرة التحقيق ويأخذ أقواله أمام الناس ؟

— بالطبع لا .

أجاب الضابط من نفسه . أكمل له الطبيب :

— ذلك مرفوض . فهذا لايحدث مع الأطباء .

ذكر أنه عضو نقابة مهنية وليست عمالية . أى نقابة كل أعضائها يحملون مؤهلا عاليا . القانون يمنع التحقيق معه الا بحضور المستشار القانونى للنقابة . وهذا يزيد المشكلة تعقيدا . وقد يؤدى الى كشف الأمر كله . تساءل الضابط : هل توجه الأسئلة الى الطبيب على ورقة منفصلة . يجيب عليها كتابة . دون

الحضور الى حجرة التحقيق ، رفض الطبيب الاقتراح من أساسه . قال أن الأسئلة فى التحقيقات لاتوجه الا الى جانٍ أو مجنى عليه . أو شاهد اثبات او نفى . هو ليس أحد هؤلاء الأربعة . ماحدث للعامل الزراعى لادخل له فيه . ان كانت وفاة قد حدثت قضاء وقدرا . ثم ان وفاة هذا الآدمى . لايجب أن تعد حدثا . ولقد خلق ليموت . وان كان الحدث هروب العامل الزراعى من النقطة ، فذلك اهمال فى التحفظ على متهم فى قضية . القول أن الطبيب مجنى عليه . اهانة له يرفضها بحسم . العامل الزراعى ليس ندا له . فى ذروة حماسه ارتفع صوته :

— احتج على كونى شاهد اثبات أو نفى . أنا أرفع من الدخول طرفا وسط أشباه الآدميين وأنصاف الحيوانات الذين يسكنون هذه البلاد .

يقول المثل ، ان الدم لايمكن أن يصبح ماء . ولأن مايربط بين الثلاثة أقوى من القرابة والنسب والمصالح المشتركة والنظرة الواحدة لكل أمور العالم . اتفقوا بسهولة على أن يطلب من الطبيب كرئيس للقسم الصحى أن يتفضل ويكتب تقريرا عما حدث .وأن يكون الطلب من رئيس القرية وليس من الضابط وبلهجة تقطر أدبا ومودة . يكتب الطبيب تقريره ويرسله الى رئيس القرية الذى يقوم بدوره بتقديمه الى الضابط ليضمه الى ملف التحقيق . كإحدى الوثائق الهامة فى التحقيق كله .

كان للطبيب تحفظ واحد على الاتفاق . وهو ضرورة أن يكتب رئيس القرية تقريرا هو الآخر فكونه رئيسا للقرية مسألة تنظيمية بحتة . فهو يتساوى معه فى كل شىء . بل يفوقه من ناحية المعاملة المادية . ونوع المؤهل . وافق رئيس القرية على أن يكتب تقريرا . اتفقوا اذن . هنأ الضابط الطبيب بحرارة على ذكائه القانونى الخارق . وقال رئيس القرية أنه سيضرب الطبيب عينا لن يقوم منها أبدا . بقيت آخر المشكلات . تساءل الطبيب :

— حا أكتب التقرير إزاى . بخط ايدى واللا حا أمليه على موظف .

أوضح الضابط :

— احتمال أن التحقيق يصبح رسميا مازال قائما . ومن الأفضل أنك تكتبه بخط ايدك . تدخل رئيس القرية ضاحكا :

— طبعا الأطباء عباقرة وخطوطهم من الصعب قراءتها فهى مثل نبش الفراخ . حذرهما الطبيب بجدية :

— لو كتبت التقرير بنفسى لن انتهى منه قبل يومين على الأكثر . ومش حا أكتبه غير بالانجليزية . فهى اللغة الوحيدة التى أستطيع التفكير بها . وحضرة الضابط يترجمه بعد كدا .

رفض الضابط متعللا بعدم وجود وقت لكل هذا . للمرة الثالثة اتفقوا على أن يملى الطبيب التقرير على أحد موظفى مجلس القرية . وأن يبدأ ذلك من الآن . ولا مانع من إعطاء القسم الصحى اجازة اليوم لانشغال الطبيب فى بعض الأعمال الرسمية الهامة التى لاتقبل التأجيل .

حضر الموظف ومعه الأوراق . جلس وأمامه منضدة صغيرة فى الشرفة واستمتع بمنظر أوراق شجرة التوت . وبالهواء المشبع برائحة الماء والخضرة والأرض المروية حديثا . وقف الطبيب ساندا جسمه لسور الشرفة فى بيجاما تكشف عن جمال ورقى ملابسه الداخلية . أخذ يملى تقريره على الموظف الذى كان مبهورا بالموقف كله . فى نفس الوقت ذهب رئيس مجلس القرية الى صالة اجتماعات المجلس ، قبل ان يكتب وجد نفسه يرفض فكرة مساواته بالطبيب . قرر أن يدون بعض الملاحظات العامة التى تدور حول الموضوع . الطبيب طرف فى المسألة وبشكل مباشر ، سواء رضى أم رفض . وكونه رئيس مجلس قرية . الذى يعد الطبيب مجرد عضو فيه . تجعل المساواة بينهما مهزلة .

جلس يكتب بسرعة . حتى تكون ملاحظاته وتقرير الدكتور بين يدى الضابط بعد قليل . لكى يبدأ التحقيق الذى سيبنيه على ماسيكتبانه .

رئيس مجلس القرية يدون ملاحظاته متحريا الدقة الكاملة

فى مساء يوم الجمعة السابع من يونيو سنة ١٩٧٤ . وردت الى مجلس القرية كميات من الدقيق والجبن والسمن واللبن الجاف من معونة الولايات المتحدة الأمريكية للشعوب المتخلفة أو الفقيرة . وإن شئنا منح الأشياء أسماءها الحقيقية . لقلنا أنها كميات من المعونة المخصصة لمكافحة الجوع فى العالم ، مع مستندات استلام المعونة التى سميت هدية فيما بعد . اشارة تقضى بضرورة توزيعها قبل مساء الغد . وتحملنى شخصيا مسئولية تنفيذ ذلك على أن يتم الابلاغ بتمام التنفيذ قبل الساعة الخامسة بعد ظهر الاثنين القادم . كانت هناك تعليمات شفهية من الموظف المرافق للسيارة . تطلب تفهيم كل من تصرف له هذه المعونة ، بأنها هدية شخصية من الشعب الأمريكي الصديق . قرر ارسالها له رجل السلام العالمى نيكسون . قال لى الموظف أن تفسيره لسبب الاستعجال هو زيارة الرئيس نيكسون لمصر . أكمل ان ذلك اجتهاده الشخصى وفهمه الخاص للأمور .

كان الوقت ضيقا(١) والمفروض عمل أسس وقواعد توزع المعونة على

(١) المؤلف يوضح : لم يذكر رئيس القرية فى تقريره . أنه لم يكن موجودا فى الضهرية . لسبب بسيط انه لايقيم فيها . لائحة العاملين فى الحكم المحلى تقضى بضرورة تواجدهم فى مقار أعمالهم وسكنهم بها وعدم تركها الا بترخيص رسمى . لكنه كان فى الاسكندرية يتمشى مع حبيبة القلب على الكورنيش . وقت وصول المعونة لم يكن

أساسها . وقد رأيت دعوة مجلس القرية ولجنة الاتحاد الاشتراكي العربي الى اجتماع مشترك لوضع هذه الأسس . عقد الاجتماع في منتصف الليل . وانتهى وقت آذان الفجر دون ان يتوصل الى قرار ما . حدثت أكثر من مشادة بين المجتمعين . تضاربت الآراء . وتحول المجتمعون الى مجموعات طالبت كل واحدة لنفسها بالحق الأخير في التوزيع . انصرفوا على أساس عقد اجتماع آخر ظهر الغد كانت الخلافات محصورة في الاجابة على سؤال : من الذى يستحق المعونة من أهل البلد . اتسعت الاجابة لدرجة اننى اكتشفت ان العشرين الف وهم كل سكان البلد يستحقون صرف المعونة . كان السؤال الثانى ، ومن الذى يشرف على التوزيع ؟ ضايقنى في الاجتماع التشنج الذى أبداه بعض الأعضاء خلال حديثهم عن فقراء البلد . أصر البعض على أن تكون سجلات الضمان الاجتماعي هى مرجعنا في التوزيع . على اعتبار ان المقيدين في السجل لاموارد لهم سوى الضمان فهو عبارة عن جنيه واحد في الشهر . رفض الاقتراح لكثرة العدد . اقترح آخر أن يكون الأساس سجلات الذين يصرفون اعانات أسر المجندين والشهداء . الاعتراض هذه المرة كان له أكثر من سبب . أولها كثرة العدد . والثانى أن كل الذين يصرفون هذه الاعانات توصلوا اليها بالتحايل وجميع هذه الأسر قادرة . وصل الأمر الى التهديد باللجوء للجهات العليا . قررت في ذهنى ان الاجتماع لن يصل الى قرار أبدا . بعد الاجتماع وأنا أتمشى مع الطبيب في حديقة المجلس .

بالمجلس غير ساعى تونيجى . تصرف بسرعة . أرسلت سيارة الاسعاف الى بلدة سكرتير مجلس القرية ليتصرف في الأمر . بعد حضوره وامام ضخامة المسئولية . قرر السكرتير ارسال سيارة الاسعاف الى الاسكندرية فورا . رغم بعد المسافة (حوالى ١١٠ كيلو متر) . لتحضر رئيس القرية شخصيا . في الاسكندرية لفت سيارة الاسعاف ودارت ولم تجد رئيس القرية في بيته . ولا بيت نور العين . أخيرا تطوع الأخ الأصغر لحبيبة القلب . ودلهم على مكان العشاق الذى يجلسان فيه . ما أن شاهد رئيس القرية سائق سيارة الاسعاف يقف بالقرب منه والخجل الريفى يصبغ وجهه بلون أحمر حتى حول المسألة الى مصاعب العمل ومتاعبه . همس لحطيبته ان الاستدعاء يتصل بشكل مباشر بزيارة الرئيس نيكسون للاسكندرية . ومروره بقرية الضهرية . وأن الاستدعاء أتى من جهات عليا وأنهم في الناحية كلها لايتصرفون في أية مشكلة بدونه . ضحكت وهو يكمل . انه بهذا يكون قد وضع قدميه على مصطبة الحكومة . ويجب أن يعد نفسه للمناصب العليا في الدولة . ركب السيارة مع نور العين . أوصلها الى منزلها . بعد نزهة ليست قصيرة في شوارع الاسكندرية .

وبعد وداع مؤثر من جانب رئيس القرية فقط . حضر الى البلد .

وردت على ذهنه فكرة . وكان قد حضر الاجتماع بصفته عضوا في مجلس القرية . شرحها لى . وافقته عليها فورا . قررت تنفيذها في الصباح . ولكنى عدت وتساءلت : هل تسمح لى صلاحيات منصبى باتخاذ مثل هذه القرارات ؟ أتت الاجابة من سكرتير المجلس الذى كان يتمشى بالقرب منا . أكد لى أن منصبى يخول لى اتخاذ أية قرارات في حدود القرية . على أن يكون التنفيذ من خلال المصالح التى أشرف عليها مثل المدرسة والمستشفى والمركز الاجتماعي ، ثم ان الاجتماع الذى يستمر أكثر من أربع ساعات ويفشل في التوصل الى قرار ما . مهما كانت الأسباب يعد من الناحية القانونية اجتماعا باطلا ، كأنه لم يكن — وافقت — لم يكن ماقاله سكرتير المجلس سبب الموافقة فقط . كان السبب الحقيقى ان كميات المعونة قليلة جدا وعدد المحتاجين كثير جدا . ولأن المحتاجين هم الفقراء المعدمون . ولا يعقل أن يكون منهم عضو في مجلس القرية أو لجنة الوحدة الأساسية . فلم يكن لهم صوت في المناقشات التى دارت . ولم يعرفوا بالمناقشات . وبالتالى لم يطلبوا أى شيء . الغريب أن الأغنياء وكبار ملاك الأراضى والتجار والموظفين لمحوا لى . ان الكميات التى وصلت الينا هدية وليست منحة . أو معونة . المعونة تمنح للشعوب الفقيرة الجائعة . مصر دولة نامية ولكنها ليست فقيرة أو متخلفة او جائعة . لهذا فالكل من حقه أن توزع عليه الهدية . حتى مالك الخمسين فدانا . النبى عليه الصلاة والسلام أوصى بقبول الهدية . رفضها أو قصرها على الفقراء قد تكون فيه اهانة لمرسل الهدية . من يدرى . قد تؤدى الى أزمة في العلاقات بين البلدين . وهذا مالا يمكن التنبؤ بنتائجه . خاصة في المرحلة التى تمر بها البلاد . طلبت من الدكتور أن يعطينى فرصة للتفكير في الأمر . في الصباح . اتفقت مع سكرتير المجلس على أن يستبدل الاجتماع الموسع . والذى تقرر عقده ظهر اليوم لأعضاء مجلس القرية والاتحاد الاشتراكي العربي معا . باجتماع مغلق بينى وبين أمين عام الاتحاد الاشتراكي بالضهرية . نظرا للظروف العامة . ولأهمية سرعة التوزيع . في هذا الاجتماع طرحت اقتراح الطبيب ووافقنا

عليه معا . وبدأت فورا فى التنفيذ الفعلى (٢) .

رئيس مجلس القرية

امضـــاء

---

(٢) رفض رئيس مجلس القرية أن يضم الى ملف التحقيق . محضر الاجتماع لبطلانه بحجة أنه لم يتوصل الى قرار ما . مع ان الاجتماع كان رسميا وقانونيا . ولم يذكر فى تقريره ان الاجتماع الورقى المصغر الذى تم بينه وبين امين الاتحاد الاشتراكى لم يتم أساسا . بل حرر محضر به . وقع هو عليه . وترك مكانا لتوقيع الأمين . تعهد سكرتير المجلس بالحصول على التوقيع . وكان ذلك سهلا . خاصة وأن أمين الاتحاد الاشتراكى أحد الموظفين الصغار بمجلس القرية . الذين تعاطوا السياسة وبالصدفة وصل الى منصب الأمين ولم يتفرغ له . واستمر فى عمله بالمجلس ، ثمة تفسيرات أخرى مطلوبة توضح الجو العام للأحداث فى الضهرية ، وكلها تعود الى ماأثاره مرور موكب الرئيس نيكسون بالقرب من البلد . قيل أن مرور الكبار بالبلاد فى القحط يحول الجفاف الى خضرة ، والكساد الى عمل . والفقر الى غنى . وجوع كل يوم الى شبع وامتلاء . الكبير كالنهر يفيض على جانبى المكان الذى يمر منه . الذين حضروا من المدن قالوا . أن المراكب الأمريكانى راسية فى الموانى . فيها الخير ورزم الأوراق المالية والمصانع التى ستركب لتعمل فورا . الرخاء الأمريكانى على الباب يطلب الإذن بالدخول ، هكذا سمع الناس فى البلد . قيل ان الموكب سيتوقف فى البلاد . سترمى الأوراق المالية من فئة العشرة جنيهات مثل حبات الأرز.. وأن البلد التى ستفوق باقى البلدان الأخرى فى الاستقبال . ستكون لها مكانة خاصة فيما بعد . سمعوا أن رئيس إحدى القرى فكر فى تغير اسمها لكى يكون قرية نيكسون (تشاء الصدف أن يفكر أهالى نفس القرية قبل عام من هذا التاريخ فى تسمية القرية بقرية شهداء نيكسون لكثرة عدد الذين استشهدوا من أهلها فى الحرب) . همس رئيس هذه القرية بفكرته لصديق . استنكرها . طلب منه ان يبقيها سره الخاص . ولا يقوله لأحد ما . رغم هذا شاعت الحكاية بين الناس . رئيس مجلس قرية الضهرية . وجد له نصيبا من الأحلام التى يبعث للناس بالمجان . قيل أن العين عليه . فهو رئيس أكبر قرية سيمر بالقرب منها الموكب . حرارة وضخامة الاستقبال قد تركله أعلى مما يتصور . ربما أصبح منصب المحافظ أو الوزير أقل من احلام مابعد الرحلة المرتقبة . مصنع الأحلام الأمريكية كان نشيطا فى تلك الأيام . قدم لسكان المدن أحلامهم . الويسكى والسجاير المستوردة . والملابس الجاهزة وعقاقير الجنون فى السفن الراسية فى المواني . على طريقتها الخاصة . حاولت الضهرية أخذ نصيبها من الحياة الجديدة . حياة ما بعد زيارة نيكسون . وهذا هو سبب الاختلاف فى الاجتماع لم يكن على المعونة التى وصلت وانما كان بشأن الحصول على أنصبة وأسهم من الحياة الجديدة التى تنتظرها مصر . الحكايات كانت كثيرة . وقيل فيها ما لم يقله أحد من قبل . وفى مثل هذه الحالات يكون من الصعب تحديد مصادرها . فى الليل داروا على الذين ينتظرون حدوث معجزة ، الشيخ عبد ربه كفيف . أخبروه أن فى البواخر الأمريكية عيونا للعميان . رئيس القرية يضايقه صلع يزحف على كل رأسه . فى أمريكا زيت يكفى أن تمر به على الرأس لكى يطلع الشعر بعد يوم . الست نفوسة عاقر . لفت الدنيا ولم تنجب . ابتسم الزائر وقال : فى البواخر علاج يجعلها تنجب سبعة من الذكور وثلاث بنات كالبدور . وتحرك الكل : الكسيح والمصدور . الذين كانوا قد وصلوا الى الحافة الأخرى من اليأس . أعادهم الحلم الأمريكى الى الحياة اليومية من جديد . كان لكل نصيبه ، الطالب والتاجر والاقطاعى القديم والفلاح والعامل والأجير . تساءلوا =

= متى نرى كل هذا . ردوا عليهم : بعد مرور الموكب مباشرة . بشرط أن تنجح الاستقبالات . ورغم هذا . كان هناك الكثيرون من الذين قالوا لا . فى بعض الأحيان لم يكن الحلم بقادر على تصفية بحار الدماء القديمة والجديدة والجراح مازالت طرية . وذكرى الشهداء وعددهم فى الضهرية ثلاثة عشر فى الحرب الأخيرة لم يمض عليها سنة واحدة .

بالعربى الفصيح أملى الطبيب تقريره

بعد الاجتماع الذى فشلنا فى التوصل الى قرار خلاله . فكرت فى مسألة المعونة الأمريكية طويلا . أرقنى التفكير لدرجة عدم النوم . بعد معاناة طويلة توصلت الى أن أفضل الطرق فى تقديم هذه المعونة وأكثرها عدلا . أن توزع على الحوامل من سيدات البلد . إما من واقع سجلات قسم رعاية الحوامل بالمستشفى أو بعد معاينة الحوامل على الطبيعة والتأكد من حملهن . نبتت الفكرة فى ذهنى وأنا أسير مع رئيس القرية . عرضتها عليه فتردد . شرحت له فكرتى : ان اختيار الحوامل . يعد رمزا فى حد ذاته . الحامل فى بطنها جنين . سيتحول الى طفل ثم صبى يصير رجلا . باختصار سيكون مواطنا مصريا بعد سنوات . عندما أعطى المعونة للحامل معناه أنها ستقول للطفل ، لولا المعونة الأمريكية لأصيبت بأنيميا حادة أيام الحمل . ولولد وبه بعض التشوهات الخلقية ، أو أتى الى الدنيا وبه نقص فى بعض الفيتامينات . وهذا ضمان أكيد لصداقة متينة بين الشعب المصرى والشعب الأمريكى الكريم . سألت رئيس القرية . ألا يحتمل أن تصل هذه الفكرة إلى أذهان المسئولين . ويفهمون الرمز البسيط . فتقرر الجهات العليا مكافأته ، قد يصل الى الشعب الأمريكى . ومن يدرى ربما عرفه الرئيس نيكسون نفسه . وفى هذه الحالة لايعرف النتائج الا الله وحده . ولما كان الامساك بالبشر من خلال

طموحاتهم أنجح وسيلة للسيطرة عليهم . ذكرته بنبوءة الغجرية والحلم الذى رآه وهما يؤكدان أن حياته ستتغير كلها بعد مرور الموكب . وافق على الفور . أبدى بعض الملاحظات الشكلية . مثل عدد الحوامل . التعداد الرسمى لسكان البلد عشرين ألف مواطن . النساء أكثر عددا من الرجال وهذا معناه وجود عشرة آلاف امرأة على الأقل . ومن يضمن عدد الحوامل منهن ، قد يكون عددهن خمسة آلاف حامل . نحن فى قرية . حيث يصل عدد الفقراء الى ٩٠٪ من السكان . وفى هذه البيئات المتخلفة يمارس الفقير حرية يومية واحدة . هى حرية أن ينجب أى عدد يشاء من الأولاد . طمأنته ان العدد أقل من هذا . اقترح أن نضع بعض الضوابط فتكون أولويات الصرف للمتعاملات مع المستشفى والمقيدات فى السجل الرسمى . وان كان العدد كثيرا . يتم التحايل عن طريق تفضيل حوامل الأشهر الأخيرة . كأن نبدأ الصرف فى الشهر التاسع . ثم الثامن وان كانت المعونة تكفى يصرف لحوامل الشهر السابع ثم السادس . ان بقيت معونة بعد الانتهاء من المقيدات فى السجل . أصرف على أساس معاينة الحوامل على الطبيعة دون الأخذ بأية بيانات تقدمها الحامل عن نفسها . نسيت أن أقول . أن هذه المرة الأولى التى أعمل فيها بالمسائل العامة . عملى الأساسى منذ حضورى الى البلد كان الكشف على المرضى فقط . قمت بهذه العملية مساعدة لرئيس القرية لاحتياجها الى متخصص فى العمل . بمجرد أن تحدثت عن الخطوط العامة للفكرة . ذهبت الى المستشفى . حصلت على سجل الحوامل . لكى احتفظ به عندى . لأنه سيكون البطل الرئيسى للبلد كلها بعد دقائق قليلة . وحتى لايعرف أحد مقدما . الذين سيصرفون والذين لن يصرف لهم شيىء . وضعت الدفتر فى مكان أمين بحجرة نومى(٣) أبدى رئيس القرية دهشته من تحملى للمسئولية . وعدنى بأن

(٣) لم يقل الطبيب أنه ما أن انتهى مع رئيس القرية الى القرار بالصرف للحوامل فقط حتى قام باجراء آلاف التعديلات بالحذف والشطب وزيادة الأسماء والبيانات والتواريخ فى سجل الحوامل . كان يمكن ان يستمر العمل طويلا . غير ان الصفحة التى تآكلت من كثرة المسح والكشط بمشارط كسر الحقن . فاجأتهم بأن قطعت من منتصفها عند محاولة اصلاح القطع اتسع كثيرا . مما اضطر الدكتور لانشاء دفتر جديد . لم يكن فى مخزن المستشفى دفاتر بيضاء . أرسل سيارة الاسعاف . التى لم تستخدم فى اسعاف أحد من قبل ، الى الوحدات القريبة لتحضر دفاتر على سبيل الدين أو السلف . أحضر الدفتر الجديد . قام بكتابته . لم يدون فى الدفتر إلا أسماء العائلات التى تكشف كشفا خصوصيا فى المنزل وتعتمد على الأطباء فى الولادة بدلا من الداية القديمة ..

يوجه لى رسالة شكر على ماقمت به من أعمال ، قال انى أول طبيب يراه فى حياته يعرف العمل الادارى بهذه الدرجة من الاتقان (٤) .

قضيت الليلة التالية ساهرا حتى الصباح . أدون كشفا بحالات الحوامل فى البلد على أساس تنازلى . الأسماء الأولى لحوامل الشهر التاسع ، مرتبة حسب الأيام . يليه الثامن والسابع وهكذا ، راعيت حتى الساعات والدقائق فى ترتيب الحالات تفاديا لوقوع ظلم على أحد من الأهالى . أعددت كشوفا على بياض لاضافة أسماء الحوامل غير المقيدات عندى واللاتى سيحضرن لاستلام المعونة ، تأكدت أن المعونة فى مخزن قانونى . تتوفر فيه الشروط الصحية . وضعت حراسة خاصة على المخزن خوفا من السرقة . أو من إشاعة أن شيئا سرق من المخزن . وتلك أخطر فهى تعود على عملنا بظلال كثيفة تضيع جهودنا المضنية خدمة لوطننا فى مرحلة دقيقة وهامة من حياته ، فاتحنى رئيس القرية فى امكانية حضور أحد من التنظيم السياسى أو من مجلس القرية أو الشئون الاجتماعية أو العمدة عملية التوزيع . قلت له بصراحة الأصدقاء . أن حضورهم أو اطلاعهم على الكشوف المعدة أضراره أكثر من فوائده . ووجود هذه المستويات سيهبط بالتناول العلمى للتوزيع . قال رئيس القرية ، أنه فكر فى هذا لكى يعطى الموضوع شكله القانونى . ويغلق الباب أمام أية محاولة للطعن فى نزاهة وعدالة التوزيع . أفهمته أننى من الممكن أن استمر فى عملى على أن يتم عمل محضر بخطوات العمل . يوقع عليه كل من يرى رئيس القرية ان لتوقيعه قيمة ما . وافق رئيس القرية لسهولة الحصول على هذه التوقيعات أرسلت فى طلب المنادى ، كلفته أن يمر فى حوارى

(٤) أحيا زماننا يقينا فى الضهرية . بأن أولاد الذوات لايكذبون وأنه لايتعاطى شرور عالمنا سوى السفلة الدكتور من أكابر الناس ولكن نصف كلامه كذب . يقول ان رئيس القرية دهش من حماسته للعمل . ولم يضف أنه قام بالعملية كلها لاقتراب موعد فتح عيادته الخاصة . القانون واضح وصريح فى منع أطباء الريف من فتح عيادات ويمنحون بدل عيادة شهرى ضخم . أصهار الدكتور بحثوا له عن منزل . وبدأ بعد اللافتة . وعمل كشفا بالأثاث المطلوب . سيحضره له أصهاره كهريون لصفقة الزواج . وعندما أتت حكاية المعونة وجدها فرصة لكى يعرف أهل البلد من هو الدكتور والى أى مدى يستطيع أن يمنع وأن يمنح .

البلد كلها ساعة الغروب . ينادى بأنه وردت للقسم الصحى بالوحدة المجمعة اعانات من رجل السلام العالمى . الرئيس الأمريكى الرحيم بالفقراء نيكسون ، كميات ضخمة من اللبن الجاف والسمن والجبن الأصفر والدقيق الفاخر ستوزع على الحوامل . الأولوية للمقيدات بقسم رعاية الحوامل بالمستشفى . يبدأ التوزيع فى العاشرة صباحا . والحاضر يعلن الغايب .

يوم الأحد التاسع من يونيو سنة ١٩٧٤ . لم يكن مثل كل الأيام الأخرى . من الثامنة صباحا . سمعت أصواتا تحت نافذة الفيللا . نظرت من النافذة . وجدت كتلا بشرية . أرسلت فى طلب التومرجى الذى أفهمنى أن القسم الصحى إمتلأ بالناس .

ــ كل دول حوامل .

ــ لا . كل حامل معاها جوزها وأولادها .

فهمت من التومرجى أن نصف سكان البلد فى القسم الصحى الآن . على أن أتحرك فورا لوضع حد لهذا الموقف الغريب . قبل أن يفلت الزمام . تضايقت . الثامنة صباحا فى الصيف وقت مبكر . نزولى بدون افطار او شاى الصباح يسبب لى صداعا . يستمر أكثر من يوم . تحاملت على نفسى ونزلت . أثار ظهورى المنتظرين . تجهمت ، تصلب جسمى . أسرعت فى سيرى . جلست فى مكتبى . العدد الذى شاهدته يفوق الكشوف المدونة والتى على بياض . كل الحوامل كن فى الأيام الأخيرة من الشهر التاسع بقدرة قادر . راودنى خاطر مضحك بأن كل نساء الضهرية حملن فى ليلة الأمس خصيصا من أجل الحصول على المعونة استدعيت التومرجى :

ــ كل الحاضرين من الضهرية ؟

ــ فعلا

ــ من قرية الضهرية ؟

طلب فرصة لايضاح الأمر لى .

ــ فيه فرق بين مجلس قروى الضهرية والضهرية البلد ، التقسيم الادارى ينص على أن المجلس القروى تتبعه حصة الضهرية ، الكنيسة ، الخوالد ، العزبة البحرية ، الجزيرة ، القنيشة ، ودا السبب فى أنه إسمه مجلس قروى الضهرية ، مش قرية الضهرية البلد هنا وبس . سألته فى حيرة :

ــ المنادى لف الضهرية فقط ودول عرفوا منين؟

ابتسم ولانت ملامح وجهه :

ــ الحال صعب والحصول على لقمة العيش ماعادش سهل . الضهرية والعزب اللى حواليها عيلة واحدة . يربطهم جميعا النسب والجوار والمزارعة . والاحتياج لوحدة أقوى رباط بين المحتاجين .

أدركت أنى أتعامل مع شبكة غريبة من العلاقات البشرية . فكرت فى قصر التوزيع على الضهرية البلد . كاتب القسم الصحى . ذكرنى بأن مجلس القرية مسئول عن العزب والقرى الصغيرة التابعة له . وعدد سكانها عشرة آلاف نسمة . عدم التوزيع عليهم دون تعليمات محددة من رئيس القرية سيؤدى الى أضرار لا أحد يعرف مداها . رئيس القرية لم يحضر بعد . كل الحاضرين مصرون على أخذ نصيبهم من المعونة . بدأت التوزيع عليهم جميعا . نظرا للزحام والهجوم على مكتبى اتصلت بالعمدة الذى أرسل لى أربعة خفراء لحفظ النظام . استمر التوزيع . بالنسبة للمقيدات عندى كان الأمر سهلا ، السجل يعد إحدى الوثائق الرسمية . غير المقيدات كن مشكلة ، العدد ضخم والمفروض أن أجرى كشفا أتأكد فيه من الحمل ، اكتفيت بالشكل الخارجى وملامح الوجه . بسبب الزحام . دليلى الوحيد كان انتفاخ البطن . بعد الظهر حضر إلىّ ، أحد التومورجية وهمس فى أذنى :

ــ انتو صرفتوا معونة غلط لفلاحة .

سألته :

ــ إزاى ؟

رد موضحا :

ــ ماكانتش حامل

صحت فيه :

ــ وهل دا معقول ؟

قال التومرجى :

ــ دا اللى حصل ، عرفت من فاعل خير ، أنا خايف عليك ، وإنت حر .

كدت أستمر فى العمل . أكمل التومرجى :

ــ السكوت غلط . من يدرى . يمكن غيرو عمل زيه ، ومين يضمن عدم كتابة شكوى بعد كدا . وفى الحالة دى مش حايقف معاك حد من أهل البلد .

صمت التومرجى . بدا كأنه قال كل ماعنده . مع أن الأهم هو مالم يقله . من يعرف ؟ قد يكون كل ماصرف خطأ ، نظرت من باب المكتب للجموع الواقفة . أحسست أنى أتعامل مع كائن قادر على كل شىء ، من الصعب الوصول الى قرار بسرعة ، استأنفت الصرف . بعد قليل ، قررت ولأسباب متشابكة ومتداخلة وقف الصرف ، والذهاب الى الفلاحة التى صرفت خطأ فى منزلها . لاحضار ما أخذته من حق الآخرين . اتجهت الى البلد . معى خفير وتومرجى وموظف من مجلس القرية . بعد تحرير محضر رسمى بايقاف الصرف . تساءلت أكثر من مرة :

ــ إزاى حصل ده ؟

أجاب الخفير وهو نصف نائم :

ــ بسيطة ، المحتاجة تغزل برجل حمار

لم أفهم . شرح لى التومرجى :

ــ يعنى الراجل اتصرف .

كدت أصيح فيه تكلم موظف مجلس القرية :

ــ انتو السبب ، قلتوا الحوامل وبس هيه اللى حاتاخد . الراجل مراته ماكانتش حامل ، اتصرف .

فى حارة ضيقة عثرنا على البيت ، الباب مفتوح ، فى وسط الدار إمرأة ريفية ليست حاملا . حولها أطفال ثلاثة ، بين أيديهم الجبنة التى صرفوها . امتدت أيادى الخفير والتومرجى وموظف المجلس ، أخذوا المعونة . عثرت على جسم الجريمة كما يسميه رجال القانون . مجموعة من الخرق وأجزاء من جوال قديم مربوطة بحبال ، صاح كاتب المجلس فى الخفير أن يأخذها . فهى أهم من المعونة التى ضبطناها ، لم يفهم الخفير المطلوب ، كررت الصياح فيه ، فهمت الفلاحة قصدنا ، رمت نفسها على الخرق ، أمسكت بها . تمكن الخفير والتومرجى والموظف بعد جهد من انتزاعها منها بالقوة . الغريب أن هذه المخلوقة الضعيفة أبدت مقاومة لاتتناسب مع حالتها الصحية التى بدت أقرب الى فقر الدم والضعف العام وفقدان الشهية ، وهى أعراض حالة سوء تغذية . أتممنا ضبط المطلوب بنجاح مذهل . لم تتكلم الفلاحة ، فتحت فمها من الدهشة وخرج منه هواء لايشكل أى صوت . سألها الخفير عن مكان زوجها . قالت انها لاتعرف . اقترب منها وهو يرفع يده مهددا ، حلفت بالمصحف الشريف وبرحمة أولياء الله الصالحين انه خرج . وان كانت لاتعرف أين ذهب ، خرجنا . سألنى الخفير ان كان ينبه عليها بارسال زوجها الى الوحدة . قلت له ، من الأفضل أن ننتظر لحين وصول رئيس القرية من الاسكندرية . لنتشاور فى الأمر . اضطر الخفير أكثر من مرة أن يفض الناس الذين تجمعوا لمعرفة حقيقة الأمر ، فى المستشفى أوقفت استئناف الصرف لأتناول

طعام الغذاء واستريح من تعب العمل . لم ينصرف الناس . اضطررت للنزول بعد الغذاء مباشرة . وهذه أول مرة أكسر فيها نظام حياتى اليومية ، المفروض أن أنام بعد الظهر حتى العصرية ، بدأت التوزيع ، أثناء العمل فوجئت بفلاح متوسط الحجم ، يتقدم منى ، ويسألنى بصوت مرتعش :

— أخذت المعونة من البيت؟؟

اقترب منى التومرجى . وهمس فى أذنى أن الذى يتحدث هو الفلاح إياه ، كنت نسيت حكايته واعتبرتها احدى طرائف الواقع الغريب الذى فرضت على الحياة فيه . واحتفظت بها . لأحكيها لصحبة السمر فى مدينتا البعيدة عند سفرى ، لم أرد عليه ، رئيس القرية لم يحضر وهو الذى سيفصل فى موضوعه .

ارتفع صوته أكثر :

— ما بتردش ليه ؟

كبس على الواقفين صمت غريب ، امتص الأصوات المتصاعدة من الجموع الواقفة . بدا لى الموقف دقيقا . على أن أتصرف بسرعة .

قلت له :

— حا أطلب لك الرأفة من رئيس القرية والعمدة . وضابط النقطة .

كان صوتى خافتا . لم يسمعه . تساءل :

— ماتسمعنى ؟

أكملت :

— الى عملته تزوير وسرقةواختلاس ، ونهب للمال العام فى الدولة وعدوان على حقوق الآخرين ، لابد من محاكمتك ولكن الرحمة مطلوبة .

اختفى الرابط بين كلماتى . كان هدفها انهاء الموقف . ولكن الفلاح خطا

خطوة نحوى . مد يده وأمسك بقميصى . لم أتصور أن تصل الأمور الى هذا الحد ، اعتدى الفلاح على ، حدث هيجان ، انطلقت من فمه قذائف الشتائم والسباب الذى لم أسمعه فى حياتى كلها من قبل . وصفنا باللصوصية . قال ، حاميها حراميها . وأن الذئاب مطلوب منها رعاية الغنم . وكيف يحدث هذا . وأنه سيفضحنا فى كل مكان :

— والله لأشرب من دمك ، يومكم الأسود قريب . أنا الضعيف العاجز قدامك . حا أكون يومكم الى اسود من شعر راسك . اليوم قرب خالص ، فركة كعب ويوصل لنا .

أفقت لأجد نفسى فى الفيللا . بجوارى طبيب وحدة نكلا العنب . والعاملون بالمستشفى . كتب الطبيب تقريرا بالحادث . هنأنى الجميع بالسلامة . عرفت أنهم تحفظوا على الفلاح وأن سيارة الاسعاف فى طريقها الى الاسكندرية لاحضار رئيس القرية شخصيا . ليتصرف فى هذه الواقعة الخطيرة . والتى تحدث لأول مرة فى ريف مصر . تحدث الطبيب ، كان حزينا . قال اننا نتعلم ونحصل على شهاداتنا العالية . ثم نرمى فى هذا الواقع الكئيب . حيث نبدد زهرة شبابنا . الأدهى والأمر أن يعتدى علينا أشباه الناس متخطين بذلك كل أشكال الفروق بين بنى البشر . حضر رئيس القرية مفزوعا . عمل اللازم وأرسل الفلاح الذى عرفنا بفضل فراسة رئيس القرية الشخصية ، أنه عامل زراعى وليس فلاحا ولا يمتلك قيراطا واحدا من الأرض . أرسل الى التوفيقية . وعاد رئيس القرية الى الاسكندرية . قضيت أمسية ناعمة . فى شرفة الفيللا . بعد أن إتفقنا على اكمال التوزيع صباحا . تم التوزيع بالشكل السليم وعمل المحضر المطلوب ووقع عليه أعضاء المجلس (٥) .

---

(٥) يعتذر المؤلف عن اثبات مذكرة الطبيب كاملة . لم هذا على حساب قية الرواية . ورغم هذا الطول . فإن الطبيب أهمل الكثير . ولم يذكره فى تقريره . وهو لم يفعل هذا لأنه من البشر الفانين الذين تنسى ذاكرتهم الكثير . من أمور الحياة . وإنما تعمد هذا . ما أغفله الطبيب سيتضح فيما تبقى من الرواية ولكن يجب الاشارة الى امرين =

= هنا : أولهما أن حادثة إعتداء العامل الزراعي على الطبيب . تحولت الى معركة ضخمة . ضاع خلالها نصف الكميات . لعدم التمكن من السيطرة على الموقف . ولم يتم اكمال التوزيع أبدا . قيل أن المعونة ضاعت . وأن الذين سرقوها هم أهل البلد . وصل اليهم نصيبهم بشكل مختلف وعندما هاج الناس قالوا لهم ان كل هذه الأخطاء لن تحدث فى الدفعات القادمة . وهى كثيرة . وانتظر الناس . الأمر الثانى انه فى اليوم الأول للتوزيع . حضرت مجموعة من شباب البلد المتعلمين . بحثوا عن رئيس القرية . وكالعادة لم يجدوه . قابلوا الدكتور ، اعترضوا على الأسس التى يتم التوزيع على أساسها . قالوا أن ذلك دعوة واضحة وصريحة للحد من الانجاب . خاصة وان الشائعات تؤكد أن ماوصل الى البلد دفعة أولى من دفعات أمريكية كثيرة . أكملوا : ان طريقة التوزيع تقف ضد جهود الدولة فى تحديد النسل . اقترحوا على الطبيب ان تصرف المعونة لكل من حدد النسل . او تصرف لكل اسرة يقل عدد الأولاد فيها عن الثلاثة . وبهذا تتحول المعونة الى محاولة للبحث عن حياة أفضل للناس . هاج الدكتور وماج . اتهم الأولاد — هكذا سماهم — بالتدخل فى أعمال السيادة . قال إن تأخير الصرف لحين وضع الأسس والحصر . سيضر بمصالح البلاد . صارحهم بأن وراء حضورهم اليه نية ضده وضد رئيس القرية ، ثم من المستفيد من القواعد المقترحة . انهم المتعلمون والمثقفون . الذين حددوا النسل بسبب تعليمهم . هؤلاء ليسوا فى حاجة الى المعونة . أو بمعنى أصح أخذوا نصف المعونة . بدون قواعد . فى نهاية الجدل الذى تحول الى معركة كلامية . كان للشباب مطلب وحيد وهو أن يثبت فى المحاضر الرسمية لتوزيع المعونة واقعة حضورهم . واقتراحهم ورفضه . قال الطبيب بسخرية : ان ذلك قرار روتينى . وهو يتولى الجانب الفنى والعلمى فى المسألة . أحالهم الى مجلس القرية الذى لم يكن فيه أحد . لكى يثبت لهم ملحوظتهم وبالطبع لم تثبت حتى الآن .

الكتاب الثانى

الدبيش عرايس

إسمع يامعالى الضابط .

سجل ياجناب الكاتب

احتياطى الشهود يتكلم

وضع الضابط تقرير رئيس القرية ومذكرة الطبيب أمامه . متصورا أن همومه انتهت . الحقيقة أن مشكلة جديدة عذبته طويلا . لم تكن لها علاقة بالتحقيق . احتار الضابط فى حلها لدرجة أنه تكلم بشأنها مع صَديقَىْ العمر ، رئيس القرية والطبيب ، لم يستطع أحد أن يتوصل لحلها أبدا .والمشكلة أن حضرة الضابط وصل الى الضهرية صباح الاثنين ، العاشر من يونيو . المفروض ان يمر موكب الرئيس نيكسون بالتوفيقية ظهر الأربعاء . وهو كمعاون لنقطة بوليس التوفيقية يعد المسئول عن الأمن بالمنطقة . من الآن وحتى مرور موكب الرئيسين . صحيح أنه تصل فى مثل هذه المناسبات قوات احتياطية من جهات مختلفة كتعزيزات إضافية . ولكن تبقى المسئولية الأولى والأخيرة عليه وحده . وهو لايستطيع أن يتقدم بطلب إجازة من العمل فى هذه الظروف الدقيقة . ولا يمكنه أن يبلغ أحدا من رؤسائه بواقعة الدبيش والتحقيق الذى يجريه بشأنه :

— والحل ؟

رد عليه صديقا العمر فى صوت واحد :

— ان تعمل كبهلوان .

ضحك الضابط :

ـــقدها وقدود وايش تكون الحادثة دى .

حدث أثناء التحقيق أن أوقف الضابط اجراءاته أكثر من مرة واستقل البوكس وذهب الى التوفيقية . ثم يعود بعد قليل لكى يستأنف عمله ، سبب هذا دهشة أهل البلد ، سرعته الغريبة فى التحقيق أثارت تساؤلاتهم . التأنى فى نظرهم ضمان تحقيق العدالة فى الحكم . الوقت المتاح أمام الضابط كان ضيقا . نهار الاثنين وليلة الثلاثاء وصباحه . عليه أن يكون فى التوفيقية قبل مرور الموكب بأربع وعشرين ساعة . لم يفهم الناس كل هذه الخلفيات . التفسير الوحيد لديهم هو خطورة القضية . والبعد السياسى لها . قال البعض ان الضابط يذهب الى التوفيقية لأن هناك جهة عليا تشرف على التحقيق . يتصل بها كلما تقدم خطوة فيه . السرعة سببها أن الدولة مهتمة بالوصول الى حقيقة أمر الديش قبل مرور الموكب بوقت كاف .

سار التحقيق فى خطين . الأول اعتداء العامل الزراعى على الطبيب . والثانى واقعة هروبه من غرفة الحجز بالنقطة الثابتة فى الليلة الماضية . توجه الضابط الى حجرة التحقيق . عرض عليه الكاتب الكشوف المعدة بأسماء الشهود الذين تم جمعهم ، مر بأصبعه عليها . خرج وألقى نظرة عليهم . العدد كبير . أعطى لكل منهم عشر دقائق ليتكلم فيها . حسب الوقت المطلوب . اكتشف أنه يحتاج الى ثلاثة أيام حتى ينتهى من سماع أقوال الشهود فقط . الكاتب يتابع حيرته . يبدو أنه فهم الموقف تقدم ببطء من الضابط . استأذنه فى أن يقدم اقتراحا صغيرا :

ـــ ليه مانسمعش الشهادة بشكل جماعى ياحضرة الضابط ؟

دهش الضابط :

ـــ دا يخل بالتحقيق

ـــالوقت عامل مهم . كل اللى حايقوله الشهود واحد .

سأله الضابط ، وقد بدأ يقتنع :

ـــ يعنى مافيش أى اختلافات ؟

ـــ إن وجدت قليلة وفى التفصيلات .

لم يرد الضابط . بدا أنه اقتنع . خطا الكاتب خارج المكتب . اقترب من الواقفين . التفوا حوله . سألهم :

ـــ حافظين ياأولاد ؟

ردوا عليه فى صوت واحد :

ـــ طبعا حافظين ..

فرد الكاتب أوراقه وأمسك بالقلم . دوّن أسماء الشهود . وكتب من الذاكرة شهادتهم فى واقعة اعتداء الديش على الدكتور وهروبه من الحجز . نظر الضابط فى الشهادة . ابتسم وقال :

ـــ الشهادة الجماعية غلط على طول الخط .

وأوضح الكاتب :

ـــ الشهادة حايتم تفريغها . كل واحد حايتكلم لوحده فى الورق الرسمى .

استدعى الكاتب الشهود من الخارج . أخذ منهم الأختام . أفرد لكل منهم صفحة . ختم أسفلها . على أن تملأ الشهادة المساحة البيضاء من الصفحة .

أخذ الضابط الأقوال ، قرأها :

نبدأ كلامنا بالبكا على عصر الناس الطيبين اللى راح . احنا بنعيش أيام غريبة . العين بتعلى على الحاجب . الفقير ماعدشى سعيد بفقره . والأيادى الخشنة المشققة ارتفعت وضربت الجلود الناعمة اللى بتزيّن وشوش ولاد الناس . اللى

حصل . ان الديش عرايس . حب يأخذ معونة غيرو . ويغير فى نظام توزيع الأرزاق على الأرض . لما الدكتور وقف له . هجم عليه . ضربه ، هدده تهديدات تمس البلد كلها . وتؤثر على مستقبلها . انقبض عليه ، راح النقطة فى نفس اليوم ، لقيناه راجع تانى ، قلنا لازم أفرج عنه بكفالة أو بضمانة . فى الليل بانت لنا الحقيقة . شفنا الديش حاطط بندقية فى كتفه وبتفوح منه ريحة البارود وماسك خنجر قرن غزال فى إيده . هدد كل الناس . هب ، خرج على الغيطان . من ساعتها ما عين وقعت عليه . مطلوق فى المساحات المزروعة . فى عز الليل . بيجى لنا صوته من بعيد ، يلامس شواشى النخل وسطوح البيوت ، يجرى الدم المرعوش فى عروقنا . يزحف الخوف على جدزان الضهرية . هددنا . اللى حايخرج يقابل الموكب العظيم القتل مصيرو . كل غنى خد معونة بالطرق إياها يشيلها ويحطها قدام سيدنا أبو نشابة فى الليل ؛ والا حايحرق بيته . هوه عارفهم واحد واحد . حتى المكان اللى منشاله فيه المعونة عارفه زى كف إيده . آخر الليل نسمعه داخل البلد من الناحية البحرية . يلف ويدور على بيوت رفقاته ، الغلبان ، عبد الله ، مصطفى ، السويسى . يوزع عليهم البنادق والخناجر يزرع فى قلوبهم حاجات ماعرفناهاشى قبل النهاردة . يرسم خطط ، يسلمهم خرايط ، أوراق مكتوبة ، أجهزة إرسال . اللى عمله الديش زى مابيقولوا فى القوانين تجمهر ضد الدولة . تم قبل زيارة مصيرية وهامة فى تاريخ البلد . وكان الهدف من التحركات كلها . افساد جو الزيارة . علشان كده . احنا كلنا . العشرين ألف مواطن مصرى . المخلصين لبلدنا . اللى بيرفضوا المستورد من الأفكار ــ شرقية أو غربية ، قبلية أو بحرية ــ بنطالب بمحاكمة الديش عرايس مع تمكينه من الدفاع عن نفسه بكل الوسائل القانونية . على أن يكون تنفيذ الحكم علنيا . كان لازم نعرف مين الواقف وراه . ومين يقرأ ومين يسمع .

مر الضابط بأصبعه على وظائف الشهود . الكل من العاملين فى المستشفى ومجلس القرية والمدرسة والمقيدين فى سجلات الضمان الاجتماعى . وطالبى الخدمات من مجلس القرية . كان من المفروض أن يستدعى الضابط بعضهم

لاستكمال التحقيق . لم يفعل ، دخل عليه رئيس القرية . همس فى أذنه حتى لايسمع الكاتب أو العسكرى :

ــ الشهود دول مايكفوشى . إزاى نعمل تحقيق من غير أقوال مراته ، مافيش واحد تربطه أى علاقة بالديش يمكن بعضهم ماشافهوش طول حياته .

بنفس الهمس قال الضابط :

ــ انتو اللى جبتوهم ياحضرة الرئيس .

ــ برضه مايمنعشى .

ــ يبقى لازم نكمل بشكل سليم .

ــ ماتنساشى التحريات .

تحرك بداخل الضابط شوقه للمغامرات والعمل ومعرفة المجهول من كل قضية . ضحك مشاركا فى القهقهة السعيدة لرئيس القرية :

ــ إنت كان من أحلام طفولتك إنك تكون ضابط ؟

رفع رئيس القرية يده . أشار بها لرأسه :

ــ لأ إنما هنا فيه مخ متكلف بيشتغل .

من جديد ضحكا معا . مد الضابط يده السمينة البيضاء وفردها . خبط رئيس القرية كفه اللامعة بها . أحدثت صوتا دهش له الكل . خرج رئيس القرية وبقايا الضحكة مازالت عالقة بملامح وجهه . أمر بإحضار احتياطى الشهود فورا . وعمل شاى وقهوة للسادة المحققين . أفاق الضابط من ضحكته . مسح فمه بظهر يده . بدا وجهه مغطى بطبقة من السعادة . نظر فلم يجد غير الكاتب . قال ان الحكاية كلها من أولها لآخرها :

ــ عك فى عك .

فى مثل هذه المواقف . لابد أن يضحك الكاتب . فى ذيل الضحكة نطق بحكمة قديمة :

ــ شر البلية مايضحك

سأله الضابط :

ــالبلية ؟

وقف الكاتب ، قال بجدية :

ــطبعا دى آخر بلوى ، أمخاخ ولاد الناس المتكلفة ، أكابر الزمن . مشغولة فى موضوع حشرة زى الدبيش .

بهدوء تكلم الضابط :

ــأحسن مافى النكد التسالى . احنا هنا بنقضى وقت . نسمع ونتكلم ونسأل . وبحكم عباد الله المخلصين .

ــفعلا يا أفندم ؟

شرب الضابط قهوته التى لم تكن مُرّة ودخن سيجارة مستوردة . لم ير الكاتب مثلها من قبل . فى طول النخلة ، حسب فى ذهنه أن طولها يصل الى الخمسين سنتيمترا فتعجب من أحوال الزمان . وصل الشهود فى الخارج . قال الضابط ، أنه سيبتكر طريقة جديدة فى التحقيق لم ترها مصر ولا أى مكان فى العالم من قبل . سيعيد خلق يوم الواقعة الدامى من جديد . من خلال كل الذين احتك بهم الدبيش فى هذا اليوم . سأل الكاتب عن يوم الواقعة . رد أنه يوم أحد . قال الضابط لنفسه أن يوم الأحد به ساعة نحس . صحح الكاتب معلومات حضرة الضابط . بأنه يوم الجمعة . بان الضيق على ملامح الضابط . سارع الكاتب بتصحيح الموقف . مؤكدا أن كل منطقة لها يومها النحس الخاص بها . عموما يقولون فى الضهرية ذلك عن يوم الجمعة وأهالى الضهرية مخطئون وان الأحد يوم نحس من أوله الى آخره .

المنادى يفتح الحديث

أول الداخلين كان رجلا طويلا . فى عينيه آثار كحل . له لحية محددة بعناية . قدمه الكاتب للضابط منادى البلد ، قال المنادى ، أنه أثناء مروره على الحارة الصغيرة التى يوجد فيها بيت الدبيش عرايس وهو ينادى معلنا وصول المعونة ووقت وشروط التوزيع . خرجت نورسته ابنة الدبيش الصغيرة . اعترضت طريقه ، فتحت ذراعيها . وصاحت فيه :

ــ بتنادى على ايه ياعم ؟

لم يرد عليها لصغر سنها . ولتصوره أن سؤالها معاكسة أطفال . خرجت زوجة الدبيش ، سألته :

ــالحوامل بس .

رد بطريقة آلية :

ــايوه ياستى .

أخذت البنت من يدها قالت وهى تدخل :

ــ ودا ظلم ايه ده ؟

يقول المنادى ان تلك هى أول مرة يرى فيها زوجة الدبيش عرايس وبطنها فارغة . ربما كان ذلك من ميلة بخت الدبيش .

ــ مشيت ، مريت على أكثر من حارة . وأنا بأفكر فى الدبيش ، لما رفعت صوتى بالنداء تاهت منى الأفكار . قلت لنفسى حكمة ربنا .

سأله الضابط :

ــ فيه حد سألك عن شرط الحمل تانى ؟

ــ كل أهالى البلد تقريبا .

الضابط يسأل زوجة الدبيش فتنفك عقدة لسانها : تحكى وتقول

استدعاها ، دخلت ، على يمينها طفل يمسك بجلبابها من الناحية اليمنى ، على يسارها طفلة تمسك بجلبابها من الناحية اليسرى ، على يدها طفل رضيع ، تقدمت منه ببطء لأنها تسير بنفس سرعة الطفلين ، اللذين يمسكان بها ، بدا الموقف ثقيلا ..

سألها :

ــ اسمك

ــ صدفة

ــ ايه ؟

ــ صدفة

صوتها يبوح بنداء لا حدّ له ، من خلال الكلمات البسيطة التى نطقت بها .

ــ سنك ؟

ــ . . . .

— عندك كام سنة ؟

كرر السؤال أكثر من مرة . وبكلمات مختلفة . حاول الكاتب أن يوضح لها الأمر . ولكن الضابط نظر اليها متفحصا ثم أملاه :

— عشرين سنة .

أدارت عينيها فى الجالسين . استقرت العينان على جزء من النافذة يبدو منه شريط عميق الزرقة من السماء . ليست فى حياتها ذكريات سعيدة تتذكرها . ولكن شريط السماء الأزرق بدا لنظرها فى تلك اللحظة كأنه الشيء الوحيد المؤكد وسط العالم كله . نزلت بنظرها على خرق قديمة موضوعة فى ركن الغرفة .

أشار الضابط للأطفال ، سألها عنهم :

— أولادنا

أشارت للطفل الذى على يمينها ، قالت ان اسمه عرايس . الطفلة التى على يسارها ، اسمها نورسته . الرضيع النائم على صدرها : غباشى . اضطر الضابط ان يستوضحها الأسماء ، لم يفهم اكثرها الا بعد تدخل الكاتب موضحا معانيها . قام الضابط ، تمشى فى الحجرة كعادته عندما يدخل فى التحقيق .

— شوفى يا صدفة

من عينيها أطل استفهام جارح ، تحاشاه . طلب منها ان تحكى له ماحدث صباح الأمس . من لحظة قيامهم من النوم . حتى عودة زوجها من الحقل لكى يذهب الى المستشفى لصرف المعونة . تكلمت ، كانت تعثر على الكلمات ببساطة . قام الضابط بجمع شتات كلماتها المفككة ، وأملاها على الكاتب :

— أمس الأول ، ساعة الغروب ، حضر مقاول الأنفار . بيّت على الدبيش لكى يذهب للعمل فى حقول اصحاب الأطيان . أعطاه الأجرة مقدما . خمسة وعشرين قرشا . ورقة بربع جنيه صحيحة ، لم يكن فى البيت مايؤكل .

اشترى الدبيش من الدكان حلاوة طحينية وشاى وسكر ومعسل . أرسلنا الولد عرايس اشترى لنا ثلاث قطع جبنة قريش . أكلنا كل ما إشتريناه فى العشاء . كانت علينا ديون مؤجلة العمر كله . يقول عنها الدبيش كلما تذكرناها :

— بكره يحلها من لايغفل ولا ينام .

— أخذ جزءا صغيرا منها وهو يمضغ آخر لقمة ، مد يده ، أشعل النار لعمل الشاى . رص الجوزة وتلك أسعد أوقاته ، سمعنا صوت المنادى :

— ياعباد الله ، الحاضر يعلن الغايب .

وقفت على الباب لأعرف الخبر . عدت وقلت له . سألنى عن الكميات . لم أكن أعرف . قالت احدى الجارات :

— دقيق فاخر وسمن صناعى وجبنة صفرا ولبن جاف بودره .

اختلفت الجارات حول تحديد الكميات . الجائع يحلم بتلال الغلال تصل مابين السماء والأرض بدون حارس كما يقول المثل . لم تتفق على تحديد الكمية . نورسته قالت :

— شوال من كل صنف .

سألنى وهو يخرج الدخان من فمه :

— الحوامل بس ؟

تاهت اجابتى وسط ثرثرة الجيران الذين دخلوا منزلنا فى هذه اللحظة . كان ما قاله المنادى مناسبة سرور مفاجئة . دفعتهم الى ترك منازلهم . قام الدبيش . خرج . عاد آخر الليل . قالت لى نقاط العرق المتجمعة فوق وجهه والتجاعيد والثنيات التى ملأت جلد الوجه كم هو متعب .

— هل كان كعادته ؟

— الفكر كان بحور توديه وبحور تجيبه .

— والصبح ؟

تولد بعض الأيام متجهمة قبيحة ، من طلعة الشمس يبدو اليوم ضيفا غير مرغوب فيه ، لم يستطع الدبيش أن يقوم من نومه . يوم كهذا ، يحمل نذره من لحظاته الأولى . حاولت احضار قليل من الماء أمسح به عيون الأولاد من العماص . انقلبت الجرة على الأرض . خبط الولد عرايس كوب الشاى ، جعل اكبر قطعة فى حجم القرش . طلعت فوق السطوح اقضى حاجتى ، فشاهدت فى الجو طائرا أسود اللون . إكتأبت نفسى من منظره . ضرب الدبيش يدا بيد وقال :

— اللهم اجعله خيرا .

قلت :

— خدت الشر وراحت .

يوم مخيف ، فيه يتبخر الصدق حتى من ألسنة الأطفال الأبرياء . يوم أحد . بدا الدبيش متعبا ، أسند ظهره للحائط المغطى بالسناج الأسود . لم يكن عندنا غموس ولا شاى ولا سكر . أخذ لقمة من خبز حاف ، أكلها فى فمه ببطء . اللقمة الثانية لم يكن فى فمه ريق يكفى لتليينها . ابتلعها جافة . الثالثة لم يتمكن من مضغها تقلصت عضلات وجهه . أدركت ان اللقمة مرت بزوره كالمسامير . بعدها لم يأكل . قام فى صمت . جمع المعسل الذى دخنه فى الليلة السابقة . أخذه من وسط الكوالح المحترقة . رصه . انتفخت عروق رقبته وهو يسحب نفسا من الجوزة . اتسعت فتحتا منخاره . خرج الدخان منهما أزرق كثيفا . كح بصوت عال . دخن كل المعسل الذى جمعه من الرماد . كان يبدو انه يسد بطنه الخالية بالدخان الثقيل . قام ، أثناء خروجه من عتبة البيت قال لى ببطء :

— يعنى لو كنتى حامل ؟

لم أرد على سؤاله ، قلت لنفسى :

— آدى الله وآدى حكمته .

أكمل :

— من يوم ما اتجوزتك وانتى حامل باستمرار . ماكنتش محتاج الحمل ده أبدا . لانا موظف فى الحكومة حاآخد علاوة على كل ولد . حتى حكومة اليومين دول . بطلت تدى للعيال علاوة . النهاردة بس كان حملك مطلوب . انما نعمل ايه . النصيب .

توقف الضابط أمام هذه الكلمات سعيدا . طلب من الكاتب ان يدون تحتها خطا ، هى الاعتراف الرئيسى فى القضية كلها . وضع الكاتب القلم . تكلم عن قدرات الضابط النادرة فى التحقيق . قال انه اشترك مع محققين كثيرين من قبل . لم يجد من هو أذكى من حضرة الضابط . أقسم على ذلك برحمة أبيه وأمه ، شكره الضابط على قصيدة المديح التى أتت فى وقتها المناسب . قال انه يجب أن يأخذ عمله بأقصى قدر من الجدية . وأنه لولا السرعة بسبب ظروفه الخاصة . لقام بإجراء تحقيق تاريخى . يدرسونه فى كليات الشرطة والحقوق ومعهد أمناء الشرطة وكليات الآداب ، قسم التاريخ للأجيال القادمة . أشار الضابط بيده لزوجة العامل الزراعى . اقتربت منه . لم يعد يفصلهما سوى المكتب فقط . قال انه يود أن يسألها أهم الأسئلة . لم تعطه الفرصة لكى يكمل . قالت ان عليها الدور لتتكلم ، ماتريد قوله أهم من كل ماقيل ، حضورها من المنزل لم يكن هدفه ان تجيب على اسئلة الضابط ، بل لتسمع منه اجابة على تساؤل بسيط : أين الدبيش الآن ؟ فى أى سجن أو مستشفى ؟ كيف يمكن ان تزوره ؟ انتفض الضابط . قال انها ليس من حقها أن تسأل ، صحيح أنه زوجها ، ولكنه رهن التحقيق وفى مكان أمين ، يتمتع برعاية لايحلم بها أحد . على الأقل يضمن لقمته ومكان

نومه . قال لها ، ان سؤالها يذكره بسؤال رئيسى لايمكن ان يكتمل التحقيق بدونه ، عن عملية تركيب البطن الصناعية لها . كيف قام الدبيش بها ؟ من الذى اشار عليه بذلك ؟ ماهى الجهات التى حركته للقيام بهذه المهمة ؟ ومن الذى تولى تمويل العملية ؟ لم تجبه ، أصبحت عيناها حفرتين مليئتين بالدم وصلها صوت ابنتها متقطعا لاملامح له . أخيرا شكشكت جفونها دموع العين . التقطت شفتاها أول دمعة انحدرت على خدها الجاف عبر الأخاديد ، شربتها ، أحست بملوحة هادئة فى طعمها . إحتار الضابط ماذا يفعل . طلب من العسكرى أن يخرجها حتى تهدأ .

قال العسكرى للواقفين على الباب :

ــ الشاهد اللى بعده .

جزء من حوار دار بين الدبيش والغلبان يرى الضابط ضمه الى التحقيق :

دخل رجل بدا التعب واضحا على ملامح وجهه :

ــ اسمك ؟

ــ الغلبان عبد الله .

ــ عملك ؟

ــ زميل الدبيش .

ــ يوم الأحد اياه ، قابلت الدبيش امتى ؟

انسابت الكلمات على شفتيه . وبدأ الضابط يملى على الكاتب :

ــ قابلته صباحا ، فى الباحة الواسعة أمام مسجد سيدى عبد الله النشابى . لم يكن فى يده المنديل المحلاوى ، الذى يضع فيه غذاءه . فهمت أنه ينوى العودة وقت القيالة ليتغذى فى المنزل ، أو لم يجد ما يأخذه فى المنديل ، فذهب دون غذاء وفى هذه الحالة سيقضى وقت القيالة نائما على بطنه ، كرامته تمنعه من مشاركة أحد فى طعامه . سرنا فى الطريق ولأننا ، حفاة نحن الاثنين تفادينا روث البهائم وبرك الطين وقطع الطوب الأحمر والزلط المكومة أمام بيوت الأغنياء الذين يعيدون بناء بيوتهم وحياتهم ابتعدنا حتى لايجرح الزلط والطوب أقدامنا العارية ، فكرت أن أسأله عن غذائه . أدركت أن السؤال سيكون بمثابة الجرح الصباحى . لم أتكلم ، ظل صامتا هو الآخر حتى تركنا البيوت وراءنا ، ودخلنا فى زمام الحقول .

سألنى الدبيش فجأة :

ــ ياترى مراتك حامل واللا لأ . ؟

ضحكت :

ــ طبعا .

قال الدبيش ولكن لنفسه :

ــ يابختك .

ــ ليه ياخويا ؟

ــ أقله حاتصرف معونة النهاردة .

ــ وإنت ؟

ــ قليل البخت ، تعمله ايه ؟

لم أعلق ، عاد الصمت من جديد ، عرفت أن الدييش لن يتكلم أبدا ، حتى آخر النهار ، فهو شحيح الكلمات . قلت له بخجل :

— الحال إنت عارفه . لو كان فيه أى شيء ممكن يفضل من المعونة كنا قسمناه مع بعض .

قاطعنى :

— مش قصدى .

— ولو كانت فيه فلوس كنا اشترينا من اللى حايصرفوا معونة أكثر من مرة . أو من اللى حايصرفوا لنفسهم انما احتياجهم للقرش حايخليهم يحرموا ولادهم منها ويبيعوها . توقف الدييش عن سيره ، سألنى بصوت هامس :

— قلت اللى حايصرفوا معونة أكثر من مرة ؟

— علشان يبقى الكلام سليم ، اللى حايصرفوا عشر مرات مثلا .

— إزاى ؟

أسعدنى أنه بدأ يأخذ ويعطى فى الكلام :

— ياعم انت نايم . سكة أبو زيد كلها مسالك . يعنى تفتكر ان أى حد من الكبار بتوع البلد مش حياخذ معونة النهاردة . لو كانت مراته مش حامل . وحتى ان كانت حامل مش حاتروح ناحية المستشفى .

— ممكن تفهمنى ؟

— أمهاتنا قالوا : اللى مايطاوعكشى طاوعه انت . صحيح ان ما فيش واحدة من اللى الحنة على ايديهم ورجليهم حاتروح الوحدة . لكن المعونة هيه اللى حتيجى لهم لغاية البيت . عرفت النهاردة أن شيخ البلد حياخذ خدامته اللى

مجوزها للتملى بتاعه . هيه حامل ومرضانه من زمان . من كتر المرض عليها ما عرفتش حكاية المعونة ، حياخذها ويقول لها . ان الحكيم حايكشف عليها . بالطريقة دى ياخد هوه المعونة وهى تشوف الدكتور من بعيد بس . ناظر المدرسة حايودى فراشة مكتبه وهيه برضه حامل .

عاد الدييش يحدث نفسه :

— مسالك .. مسالك .. مسالك ..

— المحتاج بيعمل كل اللى يقدر عليه . الناس مداريها الحيطان .

— يعنى بيتصرفوا ازاى .

— زى الناس . أى نظام بيتعمل مش عشان تنفيذه . إنما عشان نتحايل عليه . ونعمل ألف سكة . زى سكك أبو زيد اياها .

— يبقى لازم أتصرف .

— شغل المخيخ .

للحظة بدا سعيدا . أسرع فى سيره ، نقل الفأس من كتف الى الآخر . أمسكها بيده ، طوح اليد الثانية الطليقة بكل قوته . دارت نصف دائرة . راسمة فى الهواء قوسا رأيته بوضوح . عملنا هذا اليوم ، كان فى حقل بعيد . رغم طول المسافة ، لم نتكلم طول باقى الطريق . تسألنى فيم فكر الدبش . ان قلت أننى أعرف أكون قد كذبت . كل ما أعرفه أنه تنهد عندما أوشكنا على الوصول الى مكان العمل . قال لى ولنفسه وللحقل :

— والله زمان .

بدا فى عينيه ساعتها لمعان غريب . خبا عندما رأينا صاحب الحقل .

طلب منه الضابط السكوت :

— ماقالكشى أى شىء عن نية تركيب البطن ؟

— لأ ..

— كذاب

— غير صحيح .

— كل الناس قالوا انك سر الدييش .

— ومين اللى عرفه منهم . الدييش بير . رأيه ان الراجل هوه اللى يشترى الكلام وما يبعهوش . عمره ما سأل سؤال واستنى الاجابة عليه .

— ماتهجمش على رئيس القرية والدكتور والعمدة فى كلامه ؟

— ابدا

— ماتكلمش عن مرور الموكب وزيارة الضيف الأمريكى ؟

— واحنا ايش عرفنا بالأمور دى ياحضرة الضابط . لما يكون فيه موكب معدى . بنفرح . لأنهم بيلموا من الغيطان والبيوت . نروح نقف . نهتف زى مابيقولوا لنا بالضبط . وبعدين نرجع . كل واحد بياخد نصف جنيه علشان الشغلانة دى . وفى بعض المواكب المهمة بيوزعوا علينا اكل وشاى وسجاير .

— الدييش ما قالش انه ضد اللى بيحصل ؟

— بتقول ايه ؟

صرفه الضابط . نظر للكاتب . قال له : ان شهادة الغلبان تؤكد سبق الإصرار فى نفس الدييش وان الغلبان يعد المحرض الأول على الجريمة . صفق الضابط بيديه . خرجت من بين شفتى العسكرى كلمتى :

— اللى بعده ..

إقطاعى طبعة ١٩٧٥ يتساءل :
لماذا ينظر الفقير لما يملكه الغنى ؟

قدم الداخل نفسه ، صاحب الأرض التى كان يعمل فيها الدييش . اقترب فم الكاتب من أذن الضابط . حاول ان يهمس له . ولكن الرجل كان قريبا منهما . خاف الكاتب ان يسمعه . لجأ الى حيلة اخرى . كتب فى ورقة صغيرة . ان الواقف أمامهما أغنى أغنياء البلد ، يمتلك أكثر من مائة فدان . هربها من قوانين تحديد الملكية بجملة حيل . ويؤجر حوالى مائتين من الأفدنة . عنده من الأموال ما لايستطيع أن ينفقه . ويقول ساعة العصارى لأصدقائه . انه لو علم مافى الغيب . وأمن للغد لاشترى مصر بكل مافيها ومن فيها . نظر له الضابط بدهشة قدم له كرسيا ، عزم عليه بسيجارة . طلب له كوب شاى بالنعناع . سأل الضابط عن بلده . وعن العائلة التى ينتمى اليها . قال الرجل انها ستكون معرفة خير . وان كانت قد أتت فى ظروف سخيفة . عرف من الضابط أنه يقيم فى التوفيقية . طلب منه أن يبعث له العسكرى المراسلة بعد التحقيق ليرسل له معه هدية بسيطة بمناسبة هذا التعارف . دعاه لقضاء عطلة الصيف فى فيللته المطلة على النيل . عرض عليه أية خدمات يطلبها من أى مسئول فى المنطقة كلها . اعتذر له الضابط عن استدعائه . قال انه كان من المفروض ان يذهب هو اليه لولا الظروف . استغفر الرجل الغنى الله . أكد أنه سعيد بالحضور . القضية هامة . ومتصلة بالأمن القومى للبلاد . ومستقبل مصر .

— ودى بلدنا وحياتنا وحبنا .

هكذا ختم الرجل الغنى كلامه منفعلا .

طلب الضابط من الكاتب ان لا يدون ما سيدور بينهما . فهو أقرب الى دردشة الأصدقاء على ان يكتب محضرا بما سيقال بعد انصراف الرجل مراعاة لمركزه الاجتماعى . سأله عن ظروف يوم الواقعة :

— فى اليوم ده كان عندى ثلاثة وعشرين عامل ونص .

أبدى الضابط دهشته من حكاية النص ، استفهم منه عنها :

— كان فيه عشرين راجل . واثنين عواجيز وخمس عيال صغيرين . العجوز والعيال بنحسبوا نص أجرة . يبقى المجموع ثلاثة وعشرين ونص . آخر اللى وصلوا الغيط كانوا الثنائى الديبش والغلبان . فكرت أرجعهم لأن الشمس طلعت والدنيا ضحى . إنما نعمل ايه فى الاحتياج . مسكتهم ألفة الخطوط لأنهم اصغر الأنفار كلهم . الديبش كان سرحان وكأنه ناوى يعمل عملة . الأنفار حاولوا يكلموه ماردش . قعدوا يتكلموا عن حالته ، تكشيرة وشه خوفتهم ، سكتوا . ساعة التشربية بتاعت وقت الضحى دخل دوار البهايم ما خرجش منه الا على الشغل . وقت القيالة ، قال انه نبى يجيب غداه وياه ، استأذن علشان يتغدى فى البيت . قلت له ما تغبش . قال دون أن يضحك : فركة كعب . مشى . قال الأنفار التانيين ان حضوره بدون غداه حيلة . رد عليهم الغلبان : حد فى الدنيا يقدر على المشوار دلوقتى . الأرض زى النار والديبش حافى . دا صوت رجليه على الأرض يطش كأنه بينحط فى ميّة بتغلى . سكتوا . بعد القيالة مارجعش . شهدت عليه زملاءه . عرض على الغلبان انه يمسك خطه وخط الديبش لغاية مايجى . زعقت فيه . قلت له : ده سرقة واحتيال ونصب يعاقب عليه القانون . ساعة العصرية حضر الديبش . ماكانش هوه نفس الراجل اللى سابنا الضهرية . طلب أنه يكمل اليوم ويعوض الوقت اللى إتأخره . رفضت . ماتحايلش على زى ما بيعمل غيره

ومارجعش البلد . على مدار الساقية كوم شوية تراب عمل منهم مخدة . فضل نايم لغاية ماجت مراته . صحاته من النوم . قالت له كلمة واللا كلمتين . قام على حيله . وجرى ناحية البلد . مراته جرت وراه ، كان هوه أسرع . ندهت عليه ، ماوقفش . جريت تانى . تعبت من الجرى . كملت السكة على مهلها . لما وصلت لنا . كلمت الغلبان . توسلت اليه انه يمنع الديبش من العملة دى . نظر اليّ الغلبان : قلت له ان انحركت اليومية كلها مقطوعة . مسكت ايده الفأس بعصبية . دور راسه فى كل النواحى . فكر فى الشىء أكثر من مرة . صدقة لما إتأكدت أن الغلبان مش حايروح معاها . مشيت لوحدها . الغريب ان الغلبان بعد شوية ساب الشغل من غير ولا كلمة . شال فاسه على كتفه ومشى . شكره الضابط ، حياه بحرارة . أكد له أن شهادته أفادت التحقيق كثيرا .

سأله الضابط :

— تعتقد سيادتك أن الديبش هرب من السجن ؟

— لازم طبعا . احنا بنعيش يومين الديبش والغلبان . هل تتصور ان أجرة العامل الزراعى . بتوصل لجنيه فى اليوم الواحد . هل دا عدل ؟ الغفير اللى عندى شاف الديبش ليلة القبض عليه . راجع من التوفيقية . خاف منه لأنه كان مسلح ببندقيتين . واحدة معلقها فى كتفه . ومدفع رشاش فى إيده . وقنابل وبارود فى هدومه .

— كل الأسلحة دى معاه ؟

— الله أعلم . الناس بيقولوا انه حا يحارب الحكومة قريب .

— ليه ؟

— بيتكلم دايما عن الفقرا والأغنياء وعن أحوال البلد . قالوا أنه عمل الحكاية دى حيلة علشان يروح النقطة أو المركز ويجيب السلاح من هناك ..

— فيه أدلة ؟

— من كام يوم خصصت له نص اليومية . كز على سنانه . قال بصوت مليان غضب . فينك يا أدهم . وف يوم تانى قال للغلبان : ليه اسمك الغلبان وليه اسمى الديبش أيامنا عايزه أسامى زى أدهم الشرقاوى وابو زيد الهلالى . علشان ياخدوا من الأغنياء ويدوا الفقراء . وان ما قدروش ياخدوا من الأغنياء يحرقوا اللى عندهم .

قال الضابط بود :

— أنا الظاهر تعبت حضرتك .

ضحك الرجل الغنى :

— هوه أنا لسه قلت حاجة . المهم هوه اللى فاضل .

نظر الى الكاتب :

— بعد اذن حضرة الكاتب ، ليه طلب واحد ، ان الكلام اللى حا أقوله لابد ينكتب ولازم يوصل للمسئولين الكبار فوق خالص . لأنه يهمنا كلنا . لمصلحة الحكومة وأولاد الذوات . الحكاية تتلخص فى كلمة واحدة : الطمع . الفقرا طماعين . اللى مايملكش بينظر للى فى ايد الآخرين . كأنه حق له . مع ان المال زائل ويجب على الفقرا انهم يتحلوا بالصبر والقناعة والعمل الصالح . علشان يضمنوا الآخرة بكل ما فيها . ان من ينظر لما بيد أخيه فى الدين والوطن والانسانية . هو نهاية النهايات بالنسبة للكل . هل الموت بيفرق بين من يملك كل شيء . ومن لايملك أى شيء . اللى مايملكش بيكون أخف يوم القيامة .

من جديد ضحك الرجل الغنى ، اهتز اللحم الذى يغطى جسمه . سأله الضابط :

— كل الشرور من الفقرا . دى قاعدة فى علم الجريمة .

— صبرك على يا معالى الضابط . حكاية الديبش لايمكن تفوت بالساهل . القبض على الديبش مسألة حياة أو موت . استجوابه ومعرفة مين اللى معاه أمر ضرورى جدا . لو سكتنا الدور عليَّ . وبعدى رئيس القرية ، وأمين الاتحاد الاشتراكى والعمدة وانت وبعدين مأمور المركز . لازم تكسر البيضة قبل ماتفقس لأن ما حدش فى مصر كلها يقدر يعرف الفقس دا حايكون ايه فرخة واللا ديك . أنا بحذر . أنا بحذر الحكومة اللى شعرت فى ظلها بالأمان ومستعد أدافع عنها بدمى .

أتى الوداع مؤثرا للغاية . انفعل الضابط لدرجة انه تخلى عن وقاره . رمى نفسه فى أحضان الرجل الضخم ، قبله بحب حقيقى ، طافت فى مآقى العيون الأربع دموع دافقة ، أصر الضابط على أن يوصل الرجل الغنى الى باب مجلس القرية . كرر له الاعتذار عن استدعائه ، وعده ان كان الاستدعاء قد تم بطريقة غير لائقة فسيعاقب المتسبب . هدأ الرجل الغنى خاطره . قال له انه وطنى وحزبى سابق ومستعد لتقديم أية خدمة من أجل مصر صافحه الضابط أكثر من مرة . أطلت الرقة من عيونهما وأزيلت الحواجز . نادى الضابط الاقطاعى بكلمة يا والدى . ورد الاقطاعى بقوله : يا ابنى . تعجب رئيس القرية الذى انضم لهما . قال انه نقاء الجو فى الريف وطهره وبكارته هى التى تقرب بين الناس بهذه السرعة .

عندما يغرق الجميع

لم يقل العسكرى ، اللى بعده . الضابط هو الذى طلب صدفة . دخلت بمفردها . تركت الأولاد الثلاثة على البلاط فى الطرقة الموصلة الى المستشفى . كانت عيناها قد اتسعتا بفعل البكاء . أصبح سوادهما غامقا . قال الكاتب محاولا تخفيف الموقف : أن الدموع هى كحل العين .

سألها الضابط بسرعة :

— حا تعترفى واللا لأ ؟

ردت عليه بهدوء :

— اعترف بإيه ؟

— بحكاية تركيب البطن . جسم الجريمة موجود أهه .

— وهل لاعترافى أى قيمة ؟

اندفع الكاتب دون ان يستأذن حضرة الضابط .

— الإعتراف سيد الأدلة . دا مبدأ قانونى هام .

قال الضابط :

— ياتعترف هنا . يا إما فيه أماكن تانية للاعتراف .

— يبقى أحسن . على الأقل أشوف الدبيش وأطمئن عليه . الدبيش ماهو عندكم . اسألوه وهو راجل . والشهود اللى جبتوهم ماقالوش اللى انتو عايزينه ؟ خمسة وعشرين راجل . بق واحد ولسان واحد وكلام واحد . مش كفاية فى حكاية صغيرة . البطن وراك أهه . عايز ايه تانى ؟ أحكى ؟ أقول ؟ أعرى الحيطان ؟ أدخل كل العيون وكل الودان جوه البيت علشان تشوف اللى هيه عارفاه ؟ .. ده حرام .

سمع الغلبان صوتها وهى تصيح . دخل الحجرة دون استئذان :

— خايفة من إيه ياصدفة . إحكى كل اللى حصل من طقطق لسلامو عليكو . ما تخافيش ، هيه غرقانة غرقانة . ويوم ما حتغرق الكل حا يغرق فى قعر البحر .

احتج الضابط على اقتحام الغلبان لحجرة التحقيق بدون اذن . قرر ان يعاقب العسكرى الجالس أمام الباب . فكر فى القاء القبض على الغلبان كاجراء يحفظ للتحقيق والضابط ورئيس القرية هيبتهم . تردد فى اللحظة الأخيرة . قد يموت الغلبان هو الآخر . وتصبح المشكلة مشكلتين . أخرج العسكرى الغلبان من الحجرة . أطل الضابط على الباب ، ألقى نظرة على الواقفين ، سأل عنهم . وجد أنهم جيران الدبيش ، البقال ، حلاق الصحة ، مبيض النحاس ، الترزى ، الجزمانى . شعر الضابط أنه لن يكون عندهم جديد يقولونه . طلب منهم الانصراف لحين استدعائهم مرة أخرى . كلف العسكرى أن يبحث عن مخبرين يقومان بعمل تحريات عن الدبيش عرايس . وأن يكون حضورهما على وجه السرعة .

شاهد يتكلم للمرة الثانية :

إستأذن التومرجى ودخل . قال ان رئيس القرية أرسله ليدلى بشهادته ، اعترض الكاتب . قال ان التومرجى سبق ان اشترك فى الشهادة الجماعية وهل يجوز لشاهد أن يدلى بشهادته مرتين فى قضية واحدة .

قال الضابط ان القانون بحره عميق :

— اذا كانت شهادة فرد واحد أكثر من مرة . تفيد فى الوصول الى الحقيقة . فعدد المرات التى يشهد فيها غير محدود .

أملاه كلمة تسبق الشهادة الجديدة :

— اتضح لنا من خلال الأقوال ضرورة اعادة استدعاء تومرجى المستشفى . وأخذ أقواله من جديد . على ضوء ما اتضح لنا لإستكمال وإيضاح بعض النقاط الغامضة .

قال الكاتب للتومرجى :

— اتفضل احكى يا أخ .

— يوم الصرف كنت واقف قدام حجرة الكشف فى المستشفى . ساعة

الضهرية ، جه الدبيش . قال لى انه جاى من الغيط فى ساعة غداه . معاه مراته . فيها الطلق من الصبح . يمكن تولد فى أيها لحظة وعايزنى أدخله على طول . رقيت لحاله . قلت له هاتها . جابها ودخل بيها على البيه الدكتور كان باين انها حامل فى الأيام الأخيرة من الشهر التاسع . وأنها قدامها ساعة أو ساعتين وتولد . ماكانتش باين منها أى حتة . جسمها ووشها تايه ورا الطرحة السودا . قلت ان الغلابة بيقلدوا ولاد الناس فى الحشمة . أول ما شافها الدكتور . ما كانتشى قادرة تمشى أبدا . قال للى واقف جنبه ان الست دى يمكن تولد ثلاثة أو أربعة توائم . لما شك اللى واقف جنبه فى الكلام . راهنه البيه الدكتور على نص دستة بيرة . قال انه مستعد ماليا لأنها لازم تولد النهاردة أو بكرة على الأكثر .

— وواقعة الضرب ؟

— الدكتور رجع من البلد ومعاه المسروقات . كلنا هنيناه بالنصر على الأشرار . بعد شوية حضر الدبيش ومعاه عشرة غيره . عرفت منهم الغلبان . فى ايديهم عصى وسكاكين وبلط . الدبيش كان فى ايده مسدس صغير .

— كل ده علشان المعونة ؟

— طبعا لأ . لو كانت المعونة هيه الهدف . كان خد منها أى كمية وسويناها زى الباقيين . كان فيه عند الدبيش وزملائه هدف تانى . وهو عمل معركة ضخمة . يروح فيها ضحايا يوصلوا لمية . وشوف لما دا يحصل قبل الزيارة المهمة . أثره حا يكون إيه .الدكتور كان أكبر من الموقف . الدبيش إتقدم منه . شتمه . هجم عليه . الدكتور اتصرف بشكل سليم وعلمى . فوت فرصة عمل حالة شغب .

الدبيش عرايس : المشهد قبل الأخير

آخر أقوال سمعها الضابط . كانت من الساعى الذى ذهب مع الدبيش الى التوفيقية :

— استدعانى رئيس مجلس القرية ظهر يوم الأحد . طلب منى القيام بمهمة عاجلة ، تسليم الدبيش عرايس لمعاون النقطة الثابتة فى التوفيقية . ومعه خطاب شخصى لمعاون النقطة من رئيس القرية . نبه على بعدم تسليم الدبيش ولا الخطاب الا للضابط شخصيا . ومن غير حضور أى شخص بقدر الامكان . وقفت عربية الاسعاف قدام مخزن الأدوات الصحية اللى كان الدبيش محبوس فيه من لحظة اعتدائه على السيد الطبيب . لما فتحنا الباب وجدنا الدبيش متكوم على نفسه فوق فضلات أدوية مرصوصة على الأرض . ما تحركشي ، امتدت أيادينا . ورفعناه . تصور انه تم الافراج عنه . خرج واتجه ناحية البلد . مسكت بيه حوالى أربعة وعشرين إيد . دخلناه فى عربية الاسعاف . الكرسى اللى جنب السواق ما كانش يساعنا احنا الاثنين . لم يكن من الأصوب انى اركب قدام . وأسيبه بمفرده ورا . ولأنى مسئول عن توصيله بشكل رسمى . وإن هرب حاأحبس بدلا منه . وهو الآن متهم سياسى فى قضية خطيرة تمس المصالح العليا للبلاد . زى مافهمنى رئيس

القرية . قعدته على السرير المتعلق فى صندوق العربية . قعدت على السرير المقابل . حزنت بسبب حرمانى من الفسحة التى كان سيوفرها لى ركوبى بجوار السائق . تحركت السيارة ببطء . استدار الدبيش . نظر من نافذة صغيرة على شكل دائرة بجواره . البيوت والغيطان والناس بتدور ببطء فى نصف دائرة . مركزها السيارة . بدا لى كأنه يغمس رموش عينيه فى الزجاج حتى يشوف الأشياء جيدا . خرجنا من زمام البلد . أصبحت العربة على الطريق الزراعى . أسرعت فى سيرها . مل الدبيش المشاهدة . فرد جسمه الطويل على السرير . سند رأسه على يديه وقال :

ـــ وادى نومه .

فى منتصف المسافة . قام من نومته ، وسألنى :

ـــ احنا رايحين فين ؟

نظرت اليه . بدت عيناه فى هدوء وعمق سماء الصيف الخالية من السحب . قلت :

ـــ رايحين التوفيقية .

شاور على الخطاب الذى فى يدى .

قلت :
ـــ حانسلم الجواب لمعاون النقطة ونرجع مع بعض . الهدوء اللى فى عينيه بقى زى استفهام بيجرح . ملامح وشه اتحركت .

وقال :

ـــ أندال .

شاور ناحيتى :

ـــ يقى أنت من رجالة الضهرية .

هربت من نظراته . فكرت أسد ودانى وأغمض عينى ، لغاية ما نوصل . فى التوفيقية لم يحاول الهروب . لما نزلنا من الباب الورانى للعربية . مسكته من ايده ضرب إيدى . قاللى ان الهروب من صفات الجبناء لن يهرب مهما كان . حاولت أخلى مشيتى وراه . وقف ونظر لى . رفع ايده . افتكرت أنه حايضربنى . بان التردد عليه . نزل إيده وقال :

ـــ مش عايز أوسخ ايدى .

وقفت معاه قدام الضابط . سألنا :

ـــ من فيكو الفتوة ؟

شعرت بالإهانة . شاورت على الدبيش . خد منى الجواب .

قال لى :

ـــ تقدر ترجع البلد دلوقتى .

ذكرته بالرد كتب خطابا واعطاه لى وقال لى :

ـــ حاكلمه بالتليفون ان كانت هناك حاجة

عدت الى البلد بمفردى فى سيارة الاسعاف .

* * *

ما رواه الرواة عن الدبيش عرايس

لقاء بين المؤلف وزوجة الدبيش :

وكما يكتب كبار الروائيين أقول : ان الصدفة وحدها هى التى صنعت لقائى بزوجة الدبيش ، أعيش بعيدا عن قريتى . ذات صباح حضر الى ثلاثة من شبان البلد كانوا فى زيارة عاجلة للقاهرة ، بعد السلام والارتماء فى الأحضان ومسح الغربة . استأذنوا . قالوا إنهم عائدون الى البلد بعد ساعات ، سألتهم عن سبب الحضور تكلم كبيرهم . وهو مدرس تربية زراعية بالمدرسة الابتدائية ، قال انهم لجنة مشكلة برئاسته هو . وأشار لنفسه بأصبعه الطويل ، وعضوية الآخرين . حضروا إلى مصر لشراء بعض الأشياء الهامة المطلوبة لظروف خاصة . ازداد فضولى البشرى . تساءلت عن الأشياء والظروف شرح لى الأمر ، موكب الرئيس نيكسون سيمر بالبلد بعد غد . أتوا ليتسلموا من هيئة الاستعلامات صور الرئيس نيكسون وأعلام الولايات المتحدة الأمريكية ومصر . بعدد ٣٠٠ من كل منها . لتعلق على أعمدة التليفون فى المناطق الواقعة فى زمام البلد . ومحطة السكة الحديد فى التوفيقية . أرانى خطابات رسمية . تطلب هذه الكميات موجهة من مجلس القرية . الى هيئة الاستعلامات . أكمل انهم سيشترون شرائط كاسيت مسجل عليها أغانٍ وأناشيد وطنية وجهاز تسجيل ماركة فيليبس أو ناشيونال . سيمرون فى طريق عودتهم بكفر الزيات لتأجير جزء من شادر ينصب فى المحطة لتجميل شكلها

وإخفاء منظر بيوت الفلاحين الكئيبة . و ٣٠٠ كرسى لجلوس المستقبلين لحين وصول الموكب (٦) . وتأجير ميكروفونين . واحد يوضع فى محطة السكة الحديد والثانى فوق سيارة الاسعاف . وشراء كمية من الحمام . تربط فيه اعلام الدولتين . ويطلق فى الجو لحظة وصول الموكب وقماش ملون لتفصيل فستانين لطفلتين الأولى على شكل علم مصر والفستان الآخر على شكل علم الولايات المتحدة الأمريكية . يلفان حول جسم الطفلتين وتقفان للترحيب بالموكب فى مكان ظاهر (٧) .

تساءلت بدهشة :

ــ الضهرية تبعد عن السكة الحديد خمسة كيلو . الموكب حايمر بعيد عنها . هل دا له مبرر . المفروض ان اللى تعمله التوفيقية .

رد على رئيس اللجنة . قال لى ان كلامى صحيح . ولكن الذى حدث أن رئيس مجلس القرية . وهو شاب لايميزه عن غيره سوى طموحه المدمر . رأى فى المنام أنه يصافح الرئيس نيكسون بصفته محافظا للبحيرة . وأن الرئيس نيكسون أعطاه وردة بيضاء وهو يشكره على الحفاوة البالغة التى استقبله بها . اختلفت التفسيرات بشأن الحلم وان اتفقت على أمر واحد . الخير الذى سيحدث لرئيس مجلس القرية بسبب هذه الزيارة لاتحده حدود . قال البعض أنه سيرقى رئيسا لمجلس مدينة ايتاى البارود . وقال الآخرون بل رئيسا لمجلس مدينة دمنهور أو الاسكندرية . غير أن موظفا متدينا ويطلق لحيته ويمسك بالمسبحة فى يده على الدوام ويعمل بمجلس القرية . أقسم أنه رآه فى المنام محافظا للبحيرة بدرجة وزير نظرا للاتساع الشديد للمحافظة المترامية الأطراف . وأنه اشترك بنفسه فى استقبال

(٦) لم أفهم سر الحرص الغريب على الرقم (ثلاثمائة) . فى كل هذه الأصناف . قد يكون ذلك لحكمة ما لايعلمها غير رئيس القرية شخصيا .

(٧) عرفت فيما بعد أن الطفلة التى لفوا جسمها بالعلم الأمريكى كانت يتيمة . والدها أحد شهداء حرب اكتوبر . وان كانت الطفلة وأمها الأرملة الصغيرة الحسناء لم تفهما ان الضيف الأمريكى المبتسم فى حب . هو قاتل عائل اسرتهما الوحيد .

جماهيرى شعبى حماسى له . عند مدخل دمنهور . أرسل رئيس القرية فى طلب الموظف المتدين رجاه أن يتكرم بالجلوس . وهذا لم يحدث من قبل . طلب منه أن يهدأ . خلال رشفات الشاى بالنعناع والسيجارة الفاخرة التى قدمها رئيس القرية بنفسه للموظف صاحب اللحية الكثيفة ، قص عليه رؤياه وفسرها له . خرج الموظف وقد تغيرت حال رئيس القرية كثيرا . فى اليوم التالى حلم جميع موظفى مجلس القرية ، بشكل جماعى . دار الحلم حول معنى واحد وهو ترقية رئيس القرية بعد هذه الزيارة الكريمة . دخلوا مكتبه بالدور حسب درجاتهم الوظيفية وقربهم منه . حكوا ماشاهدوه عليه . دعا الرئيس الى اجتماع عاجل لمجلس القرية . أعلن فيه أن التوفيقية جزء من زمام الضهرية . (وهذا غير صحيح) . وبناء عليه لابد وأن تستعد لاستقبال موكب الرئيسين بشكل يليق بهما . وافق الجميع على كل ما اقترحه رئيس القرية ، بعد الاجتماع جلس رئيس القرية امام مكتبه سعيدا ، مرت عليه غجرية تضرب الودع . طلب منها ان ترى له بخته . جلست . وشوش الدكر ، رمى بياضه . ذكر اسم أبيه واسم أمه قالت الغجرية :

ــ ضربة الحظ جاية راكبة وابور الشحم .

استفهم منها . ردت بنفس الكلمات . تدخل ساعى المجلس ، أفهمه أن وابور الشحم هو قطار السكة الحديد . اتسعت عينا رئيس القرية . تصلب جسمه ، صرخ بأعلى صوته ، وقع على الأرض . أنقذه الطبيب من حالة التشنج التى أصابته . أفاق . ولكنه لم يستطع حتى أن يتكلم . ارتعشت يداه . اصطكت أسنانه . أصاب عينيه حول . من ساعتها لم يتحدث سوى عن الزيارة والموكب والمنصب الجديد . سارت اجراءات الاستقبال بسرعة . فكر رئيس القرية فى الاقامة بالضهرية للمرة الأولى . خاف أن يؤدى انقطاعه عن الذهاب الى الاسكندرية . الى تحول نور العين عنه . ثم أنه من الهام جدا . ان يذهب يوميا الى الاسكندرية لابلاغها أولا بأول . بأخبار المنصب الجديد .

قبل أن يتركنى رئيس وعضوا اللجنة سألتهم السؤال التقليدى :

— وإيه أخبار البلد ؟

كان الرد مثيرا . لم يذكروا أسماء الذين ماتوا . أو أخبار المنازعات اليومية على كل شيء لجدب الواقع وجفاف الحياة . ولم يقدموا لى جديدا فى حكايات الفقراء الذين يزدادون فقرا والأغنياء الذين يزدادون غنى . روى لى احدهم حكاية الدبيش عرايس والدكتور وضابط البوليس دون أن يعلق عليها . أو حتى يذكر رأيه فى المسألة ، سألتهم عن بعض التفاصيل الصغيرة . معلوماتهم بدت شاحبة وحيادية . وفهمهم لها أقرب الى عجائب الضهرية . سافرت يومها الى البلد . أسباب السفر متشابكة ومتداخلة ولكنى وجدت نفسى بعد ثلاث ساعات أغمس عينى فى مناظر البلد . التى بدت طبيعية جدا . وكأن شيئا لم يحدث . قابلت الكثيرين . تحدثوا عن الدبيش . تجمعت فى نفسى نتف الحكايات لتكون وقائع ماجرى للدبيش . وكلما سمعت فصولا جديدة استيقظت فى نفسى رغبة أن أرى زوجة الدبيش . أجلت الرغبة أو تهيبت اللقاء . لا أدرى ؟ على غير موعد رأيتها . كانت تسير فى داير الناحية . الشارع الرئيسى فى البلد . وكان يقف معى صديق يعرف اهتمامى بأمر زوجها :

أشار لها :

— آهى دى صدفة .

وقفت . اقتربت منا . إمرأة هزيلة ، الجلد مشدود على العظم ، العروق ليست منتفخة ولا زرقاء اللون . على كتفها طفل رضيع . يمسك بها من اليمين طفل . ومن اليسار طفلة . سواد جلبابها باهت . ويبدو من شد يدى الطفلتين انه على وشك ان يتمزق الى الف قطعة . من ثقوبه أطلت علينا أجزاء من جسمها وملابسها الداخلية التى لم تكن زاهية اللون . الوجه شاحب . ليس شحوب الخائفين . بقدر ماهو شحوب الذين ماتوا منذ زمن بعيد وينتظرون الدور فى الدفن . نقلت الرضيع من على كتفها الأيمن ، لفت كفها فى طرف طرحتها . صافحتنا أصرت على تقبيل ظهر يد كل منا . لم استطع سحب يدى منها ،

قبلتها . سألتها عن الأطفال الثلاثة . قالت انهم أولاد الدبيش . نظرت لهم ، داعبهم صديقى . ضحك أصغرهم ، عبث بيديه . مال جسمه ، أحسست أن رأسه أكبر من أن يحمله الجسم . صمتنا . بدا الموقف غير محتمل . سألتها لتبديد وحشة الصمت :

— عامله ايه .. قصدى ؟

رغم جهامة الموقف وحزنها على زوجها الذى لاتعرف حتى مكانه . وصلتنى ضحكتها الخافتة كالسخرية المرة . خيل الىّ انها لم تفهم ما أقصده بسؤالى . حاولت قول الكلمات المعلقة التى تكمل معنى السؤال ، وجدت صعوبة فى العثور على الكلمات المناسبة . نظرت حولى . أعمدة القيظ والحرارة تبدو واضحة فى الحارات . أتانى صوتها عميقا كأنه يخرج من بئر جاف :

— احنا من الإيد للبق . ما أنت عارف . الأغنياء بيقولوا ان الفلوس بتدفى الإيدين والجيوب . فلوسنا . وكلها حتت فضية صغيرة . فيه خصام بينها وبين جيوبنا . حتى ايدينا عمرها مافضلت فيها مدة علشان تدفيها . من سنين رمى الدبيش محفظته . هيه دلوقتى فوق الفرن باسكت بيها الواد لما بيعيط .

تهت فى كلماتها ، سألتها :

— وعايشين إزاى ؟

سريعا أتانى الرد هذه المرة . كأنما الكلمات كانت تقف على طرف اللسان :

— ليه بتقلب المواجع بس ياسيدى . أنا ما أعرفش احنا عايشين ازاى . ولا الدبيش ولا حد فى البلد كلها عارف هوه بيفوت اليوم بأى شكل . الهم فوق القلب راقات . القلب نفسه تاه وداب وضاع تحت راقات الهم .

جالت دمعة كبيرة فى بياض العينين . اختلطت فى ذهنى وأنا استمع لها

أشياء ، كثيرة . لحظتها كانت عيناى تمتلئان بمنظر أربع عمارات فخمة حولها سور يفصلها عن أكواخ الفقراء . تمتلكها أغنى عائلات البلد . بين العمارات الأربع بدت نتف زرقاء صافية من سماء هادئة . خلف صدفة وقفت مئذنة مسجد كبير تطعن الفضاء ، وتشرب من قلب السماء وبجوارنا منزل قديم متهدم .

سألتها :

— كان بيصلى ؟

— ساعة روقان البال بس — يروح الجامع — يرجع وعلى ملامح وشه تتعارك الهموم اللى راح الجامع وهوه شايلها على كتافه . والكلام اللى رجع بيه من هناك . يكلمنا عن الجنة بعد الموت والترع اللى مليانة عسل أبيض وجناين التفاح والملايكة .

طالت الوقفة . بدأت صدفة ترفع قدميها بالتناوب . لم أفهم سبب هذا ، أدركت السر عندما نبهتنى حواسى لدرجة الحرارة ، نظرت فى الأرض . صدفة حافية . طلبت منها أن تحضر ذهنها وتصف لى بدقة ثلاث لحظات أرى أن وصفها هام . قالت إنها تحت أمرى . لسبب بسيط أننى ابن البلد ، فالدم لايمكن ان يصبح ماء :

— اتفضلوا عندنا .

أيد صديقى طلبها . فكرت أن نذهب الى منزلنا . ولكننى استرحت لفكرة الذهاب الى بيتها . سارت أمامنا . انتهت من داير الناحية . دخلت حارة بدت ضيقة . البيوت واطئة واشكالها غريبة . أكوام الحطب متناثرة عليها . أدت الحارة الى أخرى أكثر ضيقا . البيوت قريبة من العشش . تلامس السقف بيديك . بعض البيوت بلا أبواب . الحارة مسدودة وقفت أمام آخر بيت :

— اتفضلوا .

لحظة دخولى أدركت ان مفردات لغتنا أصبحت مجهدة . وأن الجمل أصبحت عجوزا . لن أستطيع وصف ماشاهدته أبدا . وسط الدار ، فى أوله باب حجرة وحيدة . فى آخره . زريبة جافة وخالية . تتناثر بعض الكراكيب التى نسميها تجاوزا أثاث البيت ، بجوار الحائط ، منقد وكوالح وجوزة وعدة شاى وجوال قديم فرشته نورسته على الأرض بدلا من الحصيرة . الحجرة الوحيدة فيها فرن على الأرض حصيرة فوقها مخدة تاه لونها الأصلى . فى الجدار حبل يمتد الى الجدار المقابل . فوقه تعلق ملابس العائلة . خلف الفرن طشت وبعض الأوانى النحاسية . فوق الفرن باق مايمتلكونه . لم يكن بالدار غرفة معاش . بها من الخير مانسمع عنه فى الحكايات القديمة . الزريبة كانوا يستخدمونها لقضاء حاجتهم ، على سطح الدار كميات الحطب المختلفة . تقول أنهم تسولوها من حقول الآخرين . ضحكت سخرية من نفسى ، أدركت أننى أحد الذين يرتزقون من آلام الناس . فى الطريق الى بيت الدبيش . استحضرت فى ذهنى الكلمات التى سأصف بها أثاث منزل ريفى : طفت على سطح الذهن كلمات الطفولة البعيدة عن سحارة الملابس والطبلية وصينية القلل والسرير النحاسى الأصفر ووابور الجاز . الا ان الواقع هدم كل تصوراتى ولم أشاهد فى منزل الدبيش شيئا من هذا .

جلست فوق الجوال القديم فى وسط الدار . سألتها عن الليلة التى نادى فيها المنادى :

— خرج بعد المنادى . رجع فى نص الليل تعبان . مر الليل وعينيه ما غمضت . أنا نمت تخاطيف صغيرة . كل شوية يصحى ويسألنى سؤال واحد : يعنى لو كنتى حامل ؟ فى مرة منهم طلب منى أن أتأكد انى مش حامل . دورت له ضهرى ونمت . صحانى بالعافية . قال لى :

— لو حملتى دلوقتى يبان الحمل بكره ؟

من الخجل لم أرد عليه . استراح فى نومته . أكمل بصوت واطى :

— وحتى لو دا ممكن . هو أنا أقدر .

فزعت . أكمل كلامه :

— أنا انكسرت واللى كان كان .

نظرت للأرض ، نكشت التراب بعود كبريت مستعمل فى يدها :

— لا مؤاخذة ، اللى حصل خلى برج من عقلى طار .

حاولت تغيير الحديث :

— الدبيش رجع ليه من الغيط تانى يوم الضهر ؟

— علشان المعونة .

— عمل إيه ؟

تكلمت . يبدو أن هذه هى المرة الأولى التى تحكى فيها . توقفت أمام بعض الوقائع . عادت وصححت البعض الآخر . وقت الضهرية رجع الدبيش من الغيط . لأول مرة دخل ونادى :

— يابت

وجدها جالسة فى باب الغرفة . فى حجرها أصغر الأبناء . غباشى وتورسته نائمان بجوارها . الذباب يلعب ويمرح فوق وجهها . وقف أمامها . على الوجه تعبير غريب ، الصدر يرتفع وينخفض بسرعة . اليد أصابتها رعشة . مد يده ، حمل بها الرضيع ، وضعه على الحصيرة فى الداخل . عاد إليها وأمسكها . عاونها على الوقوف . نبت فى قلبها فرح طارىء وغامض وحلو . تصورت أنهما عادا إلى أيام الزواج الأولى . وان الصحة والشباب عادا اليهما بعد أن ضنت بهما الأيام . دب الدم من جديد فى العروق . صعد الى صدرها . تحرك بداخلها الموات القديم ، استدارت اليه ، أخذها من يدها . أدخلها الى الحجرة . وهو يغلق

الباب . قال انه قرر أن يحصلوا على نصيبهم من المعونة مهما كانت الظروف . أطل من وجهها تساؤل ساذج . رفع الجلباب الوحيد الذى ترتديه . بدت عارية . خجلت منه . استيقظت بداخلها لياليها الأولى . تركها ، جمع الخرق القديمة والقطن والأجولة . كومها بين يديه . خرج وعاد ومعه حبل غليظ ، استيقظ الاولاد . شاهدوا ما يحدث . أخرجهم الدبيش من القاعة الى وسط الدار . عاملهم ببشاشة أدهشت الصغار . أمرهم أن يلعبوا حتى ينتهى من عمله . وضع الخرق القديمة على بطنها . شعرت بقرف عندما لامست الخرق القديمة جلد بطنها . أحست بالخرق صلبة . فوقها قاذورات حولتها الى مايشبه الجلد أو الخشب . أغمضت عينيها ، تحملت . ربط الخرق والأجولة والقطن . دارت يده بالحبل حول ظهرها . اصطدمت بعظام الظهر . واحدة واحدة . اقشعر جلدها للمس يده الخشن . اقترب منها لتحكيم الرباط . شمت فيه رائحة العرق والتراب والتعب . شد الحبال . آلمها ظهرها .

— آه .

تساءل وهو يلهث :

— فين مجدعة أيام زمان ؟

بدا مثل كهل لاتوجد فى حياته ، سوى ذكريات الأيام الماضية . فتح باب الغرفة ، تراجع الى الخلف . رأى نتيجة عمله . رفع يده . مسح بها حبات العرق التى تجمعت فوق جبهته . بدت زوجته كالحامل . ارتفع البطن تحت الجلباب . الذى ارتفع من الأمام وبانت سيقانها العجفاء . نفض قدميه من التراب . غير ملابس العمل . لبس مداسه . أحضر مقطفا كبيرا وضعه فوق رأسها :

— ياللا على الوحدة .

فى البدء لم تفهم الأمر . بعد أن انتفخت البطن فهمت . لم يسبق لها أن رأت الدبيش من قبل هكذا . لم تتكلم . تصورت انها إن فتحت فمها لمزق جسدها

من الضرب . ذهبا الى الوحدة . اخترقا طرقا مهجورة . سارا بسرعة حتى لايعطيا أحدا فرصة الدهشة أو السؤال . لم يدخلا الوحدة من الباب الرئيسى . رفع الدبيش سلك السور بيديه . تمكنت صدفة من المرور . لحق بها . فى المستشفى أجلسها فى استراحة معمل التحاليل الطبية . بعيدا عن تجمع الذين ينتظرون الصرف . غطى وجهها ، ذهب الى مكان الصرف . عاد وأخذها الى الطبيب . سألها عن اسمها واسم الزوج . ردت عليه بصوت خافت . دونه الكاتب ، أخذ أصبعها وغمسها فى ختامة أمامه ، بصم به فى أكثر من مكان . لم تكن تدرى على أى شىء تختم . ولكنها كانت سعيدة بالحصول على المعونة .

وجدت صعوبة فى أن أقاطعها . لم تسمع صوتى . سألتها عن كمية المعونة التى صرفت لها . رفعت الرضيع النائم فوق يدها . استخدمت أصابع اليدين فى العد والاشارة :

كانت المعونة :

١ — صفيحة زيت بها ٤ كيلو .

٢ — جوال دقيق وزنه ٢٥ كيلو .

٣ — علبة سمن صناعى ٤ كيلو .

٤ — شيكارة لبن جاف .

٥ — قطعة جبن أصفر مبرشمة وملفوفة بسلوفان لامع .

كبر الدبيش فى نظرها . أدركت أنه يعرف الكثير عن العالم . وأنها بدونه لاتساوى قشرة بصلة .

اقتسما المعونة ، حملاها معا . فى وسط الدار . وضعا مامعهما . احتارت ماذا ستفعل . منذ زواجهما لم تدخل البيت كل هذه الكمية من الطعام . أسرع خارجا . قال انه ذاهب الى الحقل ليعمل باقى اليوم . ذكرها أنهم أخذوا أجرة اليوم

ليلة أمس . وأنها صرفت وعندما يكون عليه دين نصف يوم خيرا من أن يكون يوما بأكمله . سيعود مع المساء ، بقيت وحدها . فكرت أن تجهز طعام العشاء . من كل ماحصلوا عليه . الدقيق والسمن والجبن واللبن الجاف . أحضرت الأوانى ، اشعلت النار فى الكانون . ولأن الطعام له رائحة فى بيوت الفقراء شم الجيران بخار الماء الساخن والسمن المحروق . وشاهدوا الدخان الأزرق . سمعوا أصوات طقطقة الحطب فى الكانون وطشيش التقلية . ثم حضر الدكتور ومن معه .

رجوتها أن تصف لحظة وصوله . لم ترد على سؤالى بشكل مباشر لم يكن قد مضى على صرف المعونة حوالى الساعة . دخلوا عليها البيت دون استئذان . الدقيق فى الطشت ممزوج بمياه ساخنة تغلى . البخار يعكس على وجهها لونا ورديا لأول مرة منذ سنوات ، جلس الأطفال حولها . على شكل نصف دائرة . فى منتصفها طبق كبير به لبن ساخن وضعت فيه بقايا الخبز الجاف والذى تبقى من الإفطار . أيادى الأطفال تحرك الهواء فوق الطبق لكى يبرد بسرعة . السمن فى اناء على الكانون تحته النار . قطعت صدفة قطعة من الجبن لتأكلها . انهمكت فى العمل بكل قواها . حتى يحضر الدبيش مساء فيجد وليمة فى انتظاره . وضعت قطعة الجبن بجوارها . أخذوا كل ما وجدوه . الدقيق فى مائه . السمن . اللبن الجاف . الطبق من أمام الأطفال . حاولت صدفة منعهم من أخذ الخرق القديمة ولكنها فشلت . حتى قطعة الجبن الصغيرة أخذوها قبل أن تأكلها صدفة .

قاطعتها :

— ماتركوش حاجة أبدا ؟

مدت يدها . أخرجت من بين طيات طرحتها السوداء . ورقة صغيرة لم تكن تعرف ما بها . ربما تصورت أنها هامة . الورقة مكتوبة بالانجليزية . الكلمات القليلة المكتوبة فيها تقول : من الشعب الأمريكى الى فقراء العالم . قرأت الكلمات أعدت الورقة لها . لم تسألنى عن المكتوب . أخذتها بهدوء . أعادتها الى مكانها داخل الطرحة .

بدت أقرب الى التعب . أصبح ارتفاع الصدر وهبوطه أكثر وضوحا . قالت :

— الأغنياء أخذوا المعونة من غير حبل .

— والأغنياء أخذوها ليه ؟ همه محتاجين ؟

— البحر يحب الزيادة .

— وليه اتمسكتوا انتو ؟

— هوه الصفر يطلع من اللحم . مين يمسك مين ؟ حد يقدر يقول البغل فى الابريق . مين اللى يقف فى وش الدكتور والعمدة والناظر والأغنياء ؟ ده لسه مانزلش من بطن أمه .

مالم تقله صدفة . أن ترك الأغنياء يصرفون معونة لايستحقونها . وأخذ المعونة منها . بالطريقة التى تم بها . حكم طبقة ضد أخرى . مازالت عندها رغبة الفضفضة . تحكى وتقول ولكن القول ضائع — قالت صدفة — والعدو رايع .

— العدو مين يا صدفة ؟

— والأسئلة دى كلها ليه ؟

لم أرد . همس لها صديقى أننى أكتب . لم تفهم الحكاية . استدارت نحوى . قالت أن مافعله الدبيش بسيط . البلد كلها صرفت بهذه الطريقة . الدكتور أضاف أسماء كل الذين يستدعونه الى المنازل . للكشف الخصوصى . بعض العائلات الغنية . غير المحتاجة طبعا . أرسلت العائلة الواحدة خمس خادمات . بعد أن فعلن لهن مثلما فعلنا . الدبيش لم يخترع حكاية البطن . تعلمها من إحدى العائلات الغنية . خرج الدبيش فى الصباح . عاد وقت الظهر ، فى هذا الوقت لابد وأنه وجد من عرفه . أو شاهد ما دفعه الى هذا وهو فى الطريق الى الوحدة . قالت صدفة :

— إحنا عملنا زى كل الكبارات بتوع البلد .

لأول مرة يرتفع صوتها :

— إنت من البلد تقدر تلف ، دار دار ، وتعرف بنفسك ، كام واحدة حامل فيها وفى الكشوفات عدد اللى صرفوا معونة . وبكدا تقدر تعرف كام عيلة عملت زينا . كبس على صدرى يأس قاتل . سألتها :

— الدبيش كان مريض ؟

— إيه ؟

— قصدى كان عيان قبل كده ؟

من يومه وهو عليل . بصدره ومعدته وبطن رجليه ونظره . الليل وقت الأنين والشكاوى الموجعة والتأوهات . فى النهار الضنى اللى مالوش نهاية . من بكة الشمس لغروبها . وهوه مكفى على فأسه . الأجرة ماعادت تكفى . بلدنا صغيرة قد الكف ، الأيد العاطلة زى العار . خصوصا عندما تكون عند أجير مثله . كل يوم يعمل عند مالك . قوة ذراعه هى رأسماله الوحيد . العمل والرزق لم يكن ثابتا . لابد من إخفاء المرض عن الناس لكى يضمن العمل كل أيام الأسبوع . اليوم الخالى شغل ليس من العمر . لامال ولا أكل ولا شاى أو سكر . البقالين فى البلد لايعطون الفقراء شكك أبدا .

— وصرفتوا اليومية كلها .

— صرفنا بالليل خمستاشر قرش ونص . أكل وشاى وسكر ومعسل . سددنا دين علينا لجارتى خمسة قروش ونص . اتفضل أربع قروش . خدهم معاه الصبح وهو رايح الشغل .

هل قابل المؤلف الدبيش عرايس ؟

قال محدثى :

ـــ الدبيش عرايس ، مش عارفه ؟

رجوته أن يذكرنى به :

ـــ ابن زنوبة ؟

ـــ مين زنوبة ؟

ـــ بياعة الترمس فى ماكينة الطحين .

فى استطاعتى أن أجلس الساعات الطوال ، أحكى لكم عن الدبيش ، الأمور التى سأتحدث فيها كثيرة . نشأته وطفولته وصباه ، الطعام الذى يأكله . الأمور البسيطة التى تشغل ذهنه . أحلامه التى لم تتحقق أبدا . ولكن كل هذا . لن يكون مطلوبا الآن . قد يشكل قصصا خارجة على سياق الرواية الأساسى . وقد يعطل الحدث الرئيسى ويصيبه بترهل وعجز عن التطور وفى هذه الحالة لا أضمن متابعتكم للرواية التى نقوم بخلقها معا . الآن علينا أن نستمر . نكمل قصة

الدبيش . يقول محدثى . أوقفه . أكمل حكاية أخرى . ببطء اكتسبت ملامح الدبيش حياتها ، منحتها الكلمات والقصص والحكايات فرصة التخلق . اتضح لخيالنا . الظهر مطأطأ على الدوام ، الوجه على الفأس من طلوع الشمس حتى غروبها . استدارت الكلمات . تحركت خلالها خطوات الدبيش . لن أتوقف لأحكى قصة حياته . خفير ماكينة الطحين . الذى يملكها أغنياء الضهرية . تزوج بائعة الترمس التى تجلس عند مدخل الماكينة يوميا . أصبح منظرها جزءا مكملا للماكينة . انتقل الخفير الغريب الذى لم يكن من أهل البلد . وحضر اليها مع تركيب الماكينة . الى دار مأجورة . تملكها زوجته الجديدة . الاثنان يعيشان الأيام الشاحبة . لحظات العمر الأخيرة . أتى الدبيش الى الدنيا . وجه يطل على الضهرية . ميزته من لحظة البداية أنه واحد من الذين لايملكون شيرا واحدا من الأرض . لا فى دنيانا الفانية . ولا فى دار البقاء . لم يذهب الى المدرسة فى صغره . قضى صباه جزءا من وابور الطحين . لم يحب ان يعمل خفيرا مكان والده . انضم الى الفواعلية . الذين لايجفف عرق أيامهم غير حلم مكرر أن يمتلكوا ذات يوم قطعة من الأرض . بدد أيامه وهو يعمل فى حقول الآخرين . تزوج وعاش مع صدفة . مرة على الوجيعة ومرة على الطبطاب . يقولون عنه فى البلد أنه رجل بئر . الذين لم يحبوه من اصحاب الأرض وصفوه بأنه فى وحشة الآبار الجافة المهجورة . أكدت زوجته لى . أنه لم يكن يدللها فى الليالى الأخيرة وأن حمولات الهم كسرت أكتافه . أقسم الغلبان انه كان يكثر من إلقاء الأسئلة التى كانت اكبر من ذهنه ووعيه :

— وممتلكاته ؟

— ذراعه وعافيته .

الدبيش عرايس : مشهد لم يره أحد .

للغريب فى الضهرية رائحة خاصة . تنادى ملامحه العيون قائلة أن غريبا فى البلد . ذات مساء نزل البلد رجل طويل عريض . لحم خديه متهدل على الجانبين ، وجفنا عينيه تظهرانه كالنائم . يرتدى جلبابا أبيض وطاقية قماش من نفس الجلباب لها حائط يدور حول الرأس الكبير . على الجلباب بالطو أصفر . فى يده خيزرانة طويلة . اقتربت الأفواه من الاذان : مخبر من القسم . عندما سأل عن منزل الدبيش عرايس ، تأكدت الظنون . قام نزاع بين أهل البلد . عن أول من قال انه مخبر . رجل متعلم أكد لهم : ربما كان الرجل ضابط مباحث متخفى فى هذه الملابس ، وصل الغريب الى منزل الدبيش وحوله عدد كبير من أهل البلد . البعض فاعل خير يدله على المنزل . والآخر لكى يعرف الخبر . اقتربوا من الباب . وقف الغريب بعيدا . خبطوا عليه . نادوا . أثاروا ضجة لاتعرفها بيوت الفقراء . أطلت صدفة بوجهها فوجئت بالجميع . عادت مسرعة . بانت مساحات من جسدها من خلال الثقوب الكثيرة فى الثوب القديم الذى كانت ترتديه على اللحم . قالت للكل : اتفضلوا . فى وسط الدار . بدا الموقف مضحكا . فرشت بقايا حصيرة قديمة للضيف . قدم له الجيران مسندا باهت اللون . أسند الضيف عليه ظهره بدلا من الحائط . وقف الآخرون حوله .

قالت صدفة للضيف :

— نورت البلد .

رد عليها :

— البلد منورة بأهلها .

أتى الصمت . لم تكن صدفة تعرف الضيف الغريب . وهو بدوره لايعرف أحدا فى البلد . ما حضر من أجله لايقال فى موقف مثل هذا . فضلا عن صعوبة قوله . مضى الوقت ثقيلا . اقترب الليل . الأرض تحت الغريب لاتعرف الاستقرار . قام أحد الجيران بعمل شاى فى منزله وقدمه للضيف فهم الجميع أن بيت صدفة لايوجد فيه مايقدمونه للضيف . ذهب آخر الى دكان البقال . عاد ومعه علبة سجائر صغيرة فتحها . لف بها عليهم . أخذ حتى الذين لايدخنون وعبق جو الدار بدخان له رائحة مختلفة عن رائحة المعسل الذى كان يدخنه الدبيش .

استكنت صدفة فى آخر وسط الدار . عيناها تشربان الرجل الغريب . من اللحظة التى فتحت فيها الباب وشاهدت هذا الجمع . ودقات القلب تقول أن الأمر يتصل بحكاية الدبيش . بعد دخولهم وتمييزها لغريب بينهم لم تعد تشك فى هذا . مع رشفات الشاى ودخان السجائر قال أحدهم للغريب :

— يامرحب بالبلديات .

تكلم الرجل الغريب :

— أنا بلدياتكم . بحراوى من هنا . من بلد جنبكم اسمها الخوالد . بينها وبين الضهرية ترعة ساحل مرقص . شغلتى فى التوفيقية . باشتومرجى فى المستشفى . علشان البلد والأهل والعيال ساكن فى الخوالد . وبأروح كل يوم التوفيقية وأرجع .

مع الكلمات تسرب الى قلب صدفة إحساس لم تستطع السيطرة عليه . ردوا عليه بمجاملات مدهونة بالعوطف الانسانية . قالوا أن أهل الخوالد أحسن ناس فى المنطقة كلها . أكد أكثر من واحد انه يشبه على الضيف ، سبق أن شاهده من قبل والمشكلة : أين ومتى ؟ ثرثروا . حاموا حول الموضوع الرئيسى ، ولكن أحدا لم يقله . كان اسم الدبيش على أطراف الألسن . لم يتجسد فى حرف . جلوسهم فى وسط الدار الذى لم يكن مسقوفا جعلهم يشاهدون لمعان نجوم السماء بمجرد أن بدأت الدنيا تليل . لا بد للغريب من العودة . لم يجد بدا من الانفراد بصدفة . استأذن منهم دقيقة لكى يتكلم مع صدفة فى أمر ما .

قالوا له :

— اتفضل إنت مش غريب .

قامت صدفة فزعة . تركت أولادها الثلاثة فى وسط الجالسين . دخلت الحجرة . كانت مظلمة . وقف فى العتبة حتى أشعلت لمبة . تململ الجالسون فى وسط الدار . مشى البعض بعد أن فقد حماسته للحكاية . فوق الفرن وضعت صدفة اللمبة . وقفت أمام الرجل الذى وجد نفسه فى حيرة . ماذا يقول ؟ وكيف يعثر على البداية . خبط الخيزرانة فى حذائه مرتين . نظر الى الأرض . شاهد الخيزرانة والحذاء . رفع عينيه اليها . سألها :

— إنتى طبعا حريم الدبيش .

هزت رأسها بخوف . لم يكن هناك داع لطرح السؤال . فهو يعلم هذا من لحظة دخوله .

—والأطفال دول عياله .

أجابت بصوت سمعه واضحا . نظر الى السقف . تكلم بهدوء وبطء :

— شوفى يابنتى . أنا جاى النهاردة أعمل لكم خدمة لوجه الله تعالى . لو حد

أفهمه الضيف أن ذلك ضار . تركه ومضى . عاد الغلبان الى البلد . أحس بفراغ مخيف . فقد الرغبة فى أشياء كثيرة دفعة واحدة . لم يكن قد تعشى . أو أخذ أجرة الغد . أو ذهب الى المسجد . أو وقف أمام دكان البقال . أو جلس على المصطبة بعد أن ودع الضيف . فكر أن يسرع حتى يلحق ببعض هذه المسرات الليلية . أصابته رجفة . أبطأ سيره . أصبح يرى الأمر كالمسطول . خرج من حيرته . قرر أن يذهب الى زملائه . فرقة الشبان كما يسمونهم فى البلد ، يتحرك اللسان الثقيل . يحكى ويقول . ويعرف منهم كيف يتصرفون فى حكاية الدبيش .

تحدث الغلبان عن وفاة والد الدبيش .

يقول :

ــ لم يحك الحكاية الا بعد أن أصبحنا خارج البلد . المسافة بين الطريق الزراعى والبلد قصيرة لذا ذهبا الى آخر الطريق وعادا أكثر من مرة . كعشاق هذا الزمان . أو أغنياء الضهرية الذين يتمشون وقت الغروب كى يجرى الدم فى عروق أرجلهم . خوفا عليها من كثرة الجلوس فى بيوتهم بدون عمل . اقتربا من بعضهما أكثر من مرة . وتماسكت الأيدى .

يوم الأحد إياه مساء . الرجل الغريب نوبتجى فى الاستقبال بمستشفى التوفيقية من الثامنة مساء وحتى صباح اليوم التالى . بعد انتصاف الليل بحوالى نصف ساعة . حضرت لهم حالة غريبة . عسكرى من النقطة الثابتة يحمل على ظهره فلاحا شابا . ساعدوه فى وضعه على السرير . همس العسكرى فى أذن الدكتور النوبتجى بكلمات . هز الدكتور رأسه علامة أنه فهم ما قاله له . أو وافق عليه . الله اعلم . أمسكت بالقلم كالمعتاد . طلبت من العسكرى أوراق المريض . لأثبته فى دفتر الاستقبال . طلب منى الدكتور أن لا أكتب أى شىء . اعتذر العسكرى بأنه ترك النقطة بمفردها . لابد من عودته اليها فورا . ولأن الدكتور كان مشغولا فى

عرف إنى عملت كده . حاأخسر عملى . ويمكن حياتى . علشان كده . مش حا أقول اسمى . بلدى اللى قلته بره وحتى شغلى غير صحيح . أنا من البحيرة فعلا . إنما مش من الخوالد . وعموما الحكاية حكاية ضمير .

تباطأت حركة تنفسها . الصدر يرتفع وينخفض بشكل واضح . فتحتا المنخارين يتسعان عن آخرهما . جف ريقها ، دارت بلسانها فى الفم الصغير . نبتت حبة عرق بين شعر رأسها المتناثر :

ــ فيه حاجة حصلت ؟

خرجت الكلمات بلهفة . كأنها أودعت حياتها وأولادها فى كل حرف خرج من فمها . فوجىء الجالسون فى وسط الدار بصوات صدفة . لم يستطع أحدهم فيما بعد أن يصف عنف الصوات ولا مدى الفزع الذى شعروا به عند سماعهم له . دخلوا الغرفة شاهدوا صدفة تهجم على الضيف الغريب . ممسكة به من خناقه . احتاروا فى فهم الأمر لدقيقة . ثم خلصوا الرجل من بين يديها . شاركها الأطفال الثلاثة فى البكاء . لم يعد البقاء فى البيت ممكنا . خرجوا ، على باب البيت وجدوا الغلبان . قدموه للضيف على أنه حبيب عمر الدبيش . سلم عليه . أحسّ بملمس الشقوق التى تملأ كفه واضحة كالأرض الشراق . أخذه الغلبان الى منزله . اعتذر الضيف بتأخر الوقت والعمل الذى ينتظره من الفجر . اقترح عليه أن يوصله الى الطريق الزراعى ويعود . حكى له الأمر ببساطة وبسرعة وبدون مقدمات . بدا للغريب أن زميل الدبيش كان يعرف الحكاية . قال الضيف أنه كان يود أن يكلم صدفة . ولكنها هجمت عليه . قالت أنها تشم رائحة الدبيش فى ملابسه . فهى تعرف رائحة دمه جيدا . لم يخلصه منها غير الناس . على الزراعية لم ينتظر السيارات . حضورها فى الليل مستحيل . عرض عليه الغلبان أن يوصله الى التوفيقية . أو أن يبيت عنده حتى الصباح . صمم الغريب على أن يمشى . حاول الغلبان أن يعرف اسمه أو بلدته

يمكن نحتاجك بعد كده .

فحص الحالة بدقة . لم يسمعه . انصرف العسكرى . باختصار كانت الحالة ميئوسا من شفائها . سبع كلمات فقط . نطق بها الدكتور بعد الفحص :

— دى حالة ضرب شديدة . حا تؤدى الى الوفاة .

جلس وطلب بعض الأوراق غير الرسمية . كتب تقريرا بالحالة ، بسرعة وانفعال وربما غضب . لم أحاول سؤال الدكتور عن الحالة . لا أعرف كثيرا فى الطب . أعتقد أنه كان من الممكن انقاذ المريض . صحيح انه لايوجد فى المستشفى جراح نوبتجى . ولكن احضاره لم يكن مسألة صعبة . قد تكون الطريقة التى أحضروا المريض بها هى السبب فى عدم انقاذه . خاصة وانه كان يتمتع بقوة خارقة . لم أرها من قبل . النزيف كان مرعبا . الكسور قاتلة . عيناه التى فقعت تنزف بغزارة . لم يتكلم طوال الساعات التى قضاها فى الاستقبال . الأنين والتأوهات بدت أبلغ من أى ألم . انتهى الدكتور من كتابة تقريره . وضعه فى جيبه ، لم يرفقه بدفتر أحوال المستشفى . كما يقضى بذلك نظام العمل المتبع . قبل أن ينصرف قال لى انه قد يحتاج شهادتى فيما بعد . بخصوص هذا الفلاح . أبدى الدبيش طلبا واحدا . أن أحضر لكم هنا . أخبركم بما حدث . حتى لاتضيع حياته فطيس . تلك هى الكلمة التى كررها اكثر من مرة . واضطر للاشارة بيده ليفهمنى اياها . فى الفجر . عندما كان المؤذن يطلب الرحمة من رب العباد . من فوق مئذنة المسجد . المجاور للمستشفى . مات الدبيش . أغمضت عينيه ووضعت قطعة من القطن بين أسنانه . وربطت فكه الى رأسه . وفردت ذراعيه وقدميه . اتصلت بالدكتور . أمرنى بنقله الى المشرحة بهدوء دون أن يعرف أحد . وأن لا يدون اسمه فى أية دفاتر خاصة بحركة الدخول أو الخروج من المستشفى . أو سجلات المشرحة ، أبديت خوفى وشكوكى فى الحكاية . طمأننى انه سيتصرف فى الأمر صباحا .

مات الدبيش إذن .

قال الضيف للغريب :

— الحق هو انقتل . مش مات .

— دلوقت نطلب له الرحمة .

رد الغلبان :

— مارحمة الا رحمة الحى .

سأل الغلبان الضيف الغريب :

— وما كانش ممكن إنقاذه ؟

قال الرجل : ان الكل كان فى انتظار مرور الموكب . صحيح أنهم اهتموا بالدبيش ولكن على قدر لحافك مد رجليك . أخذ ما يستحقه من اهتمام . الدكتور الذى كشف عليه كان يعمل لمدة أربعة ايام بدون لحظة راحة واحدة . وهو ممارس عام أصلا وليس جراحا .

— ثم كانت فيه حالة طوارىء فى المستشفى ؟

— طوارىء ؟

— طبعا .

— ليه ؟

— الزيارة .

أبدى الغلبان دهشته . هل لمستشفى التوفيقية العام علاقة بزيارة الرئيس نيكسون . ضحك الرجل الغريب . قال له : يبدو أنك لاتعرف الكثير عما يحدث . كان لابد من إخلاء بعض العنابر واخراج مرضاهم مهما كانت حالتهم . قد تحدث اصابات للمستقبلين بسبب الهتافات أو الجرى وراء الموكب أو الحماس الشديد فى الاستقبال . من يومين أتت التعليمات صريحة وواضحة . تسليم سيارة الاسعاف وسيارة نقل الموتى وسيارة النقل الى اللجنة العليا للاشراف على ترتيبات

الاستقبال . مع انضمام الممرضات والتومرجيات الى العناصر النسائية فى الاستقبال . تساءل الغلبان :

— يعنى لو اعتنى الأطباء بالدبيش ؟

أكد له الرجل الغريب . أن الأعمار بيد الله وحده . عمر الدبيش انتهى . مهما حدث كان سيموت رفض الغلبان كلام الرجل :

— المسألة مش مفهومة ..

سأل الغلبان عن بعض الأشياء التى لم يفهمها فى حكاية الرجل الغريب . العسكرى الذى أحضر الدبيش الى المستشفى وهمس فى إذن الدكتور . ماذا قال له عندما أغلق الحجز فى النقطة على الدبيش . من كان فيه ؟ يقولون أنهم ألقوا القبض على كل الخطرين على الأمن العام ، قبل الزيارة بأسبوع . أين كانوا ؟ الاصابات التى أدت الى وفاة الدبيش بفعل فاعل . ولا يمكن أن يحدثها بنفسه . من هو الفاعل ؟

مات الدبيش إذن .

قال الضيف الغريب :

— أنا قلت اللى أعرفه .

لكنهما أهملا اللحظة التى قتل فيها الدبيش . الضابط كان نائما ساعتها فى استراحته يحلم بزيارة نيكسون لمصر ، جميع العاملين فى المستشفى يواصلون الليل بالنهار فى الاستعداد للاستقبال . فى اللحظة التى أغمض فيها الدبيش عينيه . كانوا يعلقون لافتة على مزلقان السكة الحديد . الأرضية بيضاء . والكتابة بالأخضر . اللون السائد فى ريف مصر . «مرحبا برجل السلام العالمى . صديق المصريين». حجرة التربية الواقعة خلف المستشفى مضاءة . الخياطة تعمل فى ملابس جديدة . سترتديها التومرجيات والممرضات والحكيمات لحظة وصول

الموكب . تصبح عهدة فى مخازن المستشفى بعد الزيارة ، تستخدم فى مناسبات مماثلة مستقبلا . على شريط الضوء الخارج من نافذة غرفة التربية ، بواب المستشفى والخفير ونوبتجى المشرحة يدخنون الحشيش من أول الليل . عامل الكهرباء يركب ميكرفونات فوق سيارة الاسعاف . ستنطلق منه كلمات الترحيب بالانجليزية والعربية . مع مراعاة اللهجة الأمريكية وطريقة النطق . لم يكن الاختيار قد وقع بعد على الطبيب الذى سيتكلم بالانجليزية . ويقال ان خصومات وقعت بين الأطباء والمهندسين الزراعيين ورؤساء المصالح ونظار المدارس . طالبوا بأن يتولى كل واحد الترحيب لمدة دقيقة . حتى ينال كل منهم شرف الاستقبال . فى نفس اللحظة . كان الحاج عبد الفتاح عبد الله . أحد التجار الذين اغتنوا فجأة خلال السنوات الأربع الأخيرة . يرتب رزم الأوراق المالية ويفكر فى توسيع تجارته . الأيام القادمة فرصة العمر له . وكانت والدة شاب ذهب الى الحرب ولم يعد . كلما سألت عنه قيل لها أنه مفقود ولم يحدد موقفه بعد . عام بأكمله مر . ضنوا عليه خلاله بلقب « شهيد حرب التحرير » . كانت تستجدى ثمن العشاء . لم تجد من يمد لها يده بمليم . بعد انتصاف الليل . أخذت تحكى قصتها لصمت الليل وظلامه منذ عشرة أشهر حزنت على ابنها الوحيد . وصلت الوجيعة الى القلب ، دفعت رشوة . وعملت واسطة ضخمة . تمكنت من دخول المستشفى . فرحت يومها . على الأقل ضمنت لقمة وسقفا تعيش تحته . بالأمس كتب لها الطبيب خروجا فى ذيل ورقة العلاج المعلقة فى شباك السرير الأبيض . بكت . عاد اليها الطبيب . قال لها . أنها مازالت مريضة . وخروجها يشكل ضررا عليها . ولكنها التعليمات العليا باخلاء المستشفى نظرا للظروف الحاضرة . لمدة أسبوع :

— وبعد الأسبوع ؟

— تعالى وننظر فى أمرك .. حسب الظروف الجديدة .

بالفطرة وحدها أدركت أنها لن تدخل المستشفى مرة أخرى أبدا . لم تعد تملك الرشوة ولا الواسطة . فى الضهرية . تسللت الحكيمة الى فيلا الدكتور . دخلت

من الباب الخلفى ورآها خفير الوحدة الليلى . أدار وجهه للناحية الأخرى . حتى لاتخجل منه ، فى الداخل . خلعت ملابسها وبدأت طقوس كل ليلة بمضاجعة سريعة يقول عنها الدكتور :

— تسليك زور .

فى الاسكندرية خرج رئيس القرية من حفلة الساعة التاسعة من إحدى دور سينما الدرجة الأولى . أبدت الخطيبة ضيقها الشديد بسبب تعطل أجهزة التكييف فى السينما . أخره الى مابعد منتصف الليل ، أن نور العين أبدت رغبتها فى أن تتعشى سندوتشات خفيفة . يأكلانها وهما يتمشيان على الكورنيش . وهذا يحدث لأول مرة على غير عادتها . طار عقل رئيس مجلس القرية من الفرح . فى دقيقة أحضر السندوتشات . شما هواء نقيا مبللا بقطرات المطر . متعا الأذان والعيون بصوت ومنظر الموجات المرتفعة . الهواء مشبع باليود . شعر رئيس القرية أنه سعيد . وأن قلبه يقفز أمامه فى الطريق من الفرح .

مات الدبيش وكانت صدفة فى بيتها المتهدم المهجور . العين كاسات دم . الفم يطلب من الصبر أن يصبرها على ماجرى لها .

مساء الثلاثاء دفن الدبيش فى مكان ما . لايعرفه أحد . أخذه رجل لم يره أحد فى التوفيقية من قبل . ذهب به ولم يعد . سأل الغلبان الرجل الغريب ان كان يعرف الشخص المجهول الذى أخذ جثة الدبيش . تركه الغريب . قال ان الشخص المجهول لاقيمة له . يكفى إنكم عرفتم القاتل الحقيقى الباقى تفصيلات . سأله الغلبان :

— مين القاتل ؟

دارت عينا الغريب على أشياء كثيرة . فيللا الدكتور ومكتب رئيس مجلس القرية ودوار العمدة وعمارات الأغنياء . وادارة رعاية عمال التراحيل ومقر الاتحاد

الاشتراكى العربى . ومدفن باشا سابق أعده لكى يدفن فيه بعد موته . ويبدو أنه لن يموت أبدا . فها هو زمنه يعود أقوى من سنوات الأربعينات . أشارت عينا الغريب للتوفيقية وإيتاى البارود والقاهرة .. سمعا صوت القطار البعيد . دارت يده لترسم كل الاتجاهات من حولهما .

وسار ، ابتلعه ظلام ريفى دسم .

تقارير ووثائق بها بعض المعلومات عن حياة الدبيش عرايس

عندما احتاج الضابط لعمل تحريات عن الدبيش . لم يكن لديه فى نقطة البوليس بالتوفيقية معاون مباحث ولا مخبرين . والمفروض ان أحتاج لعمل تحريات حول موضوع ما . أن يلجأ الى مركز إيتاى البارود . هذه المرة لم يكن يستطيع ان يعتمد على المركز ، المطلوب . تقفيل موضوع يتم بشكل صورى . فكر الضابط . وجد ان الحل الوحيد . هو العثور على أى شخص يقبل تزويده بالمعلومات المطلوبة . لم يجد من أهل البلد من يقبل القيام بهذه المهمة . أصدقاء عمره نصحوه بالابتعاد عن أهالى البلد . عثر الضابط على هدفه فى شخص عسكرى حضر للخدمة فى النقطة حديثا . غير معروف فى الناحية وعنده ملابس مدنية لا بأس بها . يقول عن نفسه أنه يعرف الكثير من أمور الدنيا ويزعم أنه حاصل على الثانوية العامة ويعمل عسكرى نتيجة ظروف خاصة وأنه جهز أوراقه استعدادا للالتحاق بمعهد أمناء الشرطة . ولكن شرط السن حال دون ذلك فهو كبير بيوم واحد عن السن المقرر . استدعاه الضابط . قربه منه . وضع يده على كتفه . قال انه يعتقد ان عنده مؤهلات خاصة لاتوجد عند غيره . سيمنحه فرصة العمر . المهمة التى يكلفه بها . مفروض أنها عمل ضابط قد الدنيا . سيعهد بها اليه لثقته فيه . وهى بسيطة جدا ، عمل تحريات عن الدبيش عرايس ،

لم يصارحه الضابط بالموضوع كله . حدد له التهمتين الموجهتين للدبيش فقط . قال العسكرى أنه أصلح من يقوم بمهمة التحرى ، سأل الضابط عن السبب . قال له : أن له أقرباء فى الضهرية . ذكر اسم اكثر من عائلةمن أغنياء البلد . اقطاعيين سابقين . كبار ملاك أراضى ، تجار . موظفين . أكد له الضابط ، أنه سمع أسماء هذه العائلات العريقة . وان كان الحظ لم يسعده بالتعرف على أى منهم من قبل . ومن هذه البيوتات العريقة سيعرف كل المطلوب عن حياة الدبيش من لحظة ميلاده وحتى لحظة الاعتداء على الطبيب . وما دام مصدر المعلومات أولاد ناس أكابر فهى صادقة تماما . الأغنياء لايمكن أن يكذبوا أبدا . مضى يوم واحد . عاد العسكرى سعيدا . قال انه عاد بحلين . واحد ينهى الحكاية والآخر يجعلها مثل موج البحر الجايات فيه أكثر من الرائحات . دهش الضابط . رجاه ان يشرح له الأمر :

— معايا تقريران . الأول يقول أنه لم يكن هناك شخص اسمه الدبيش . والثانى يقول ان الدبيش راجل مشاغب وخطير وله موقف ضد الدولة .

تصور الضابط أن العسكرى يداعبه محاولا إزالة الفوارق بينهما . سأله :

— والأدلة ؟

أخرج العسكرى من جيبه تقريرين مرفق بهما أوراق كثيرة . من النظرة الأولى لاحظ الضابط أن الأوراق ليست مكتوبة بخط العسكرى . اتضح له ذلك من جمال الخط ونوع الورق . فى أعلى الصفحات كلمات مكتوبة بالألمانية . تؤكد أن الورق منزوع من أجندة لسنة ١٩٧٤ . مطبوعة فى ألمانيا الغربية . سأله الضابط ان كان هو الذى كتب التقريرين . إحمر وجه العسكرى . قال إن التقريرين من إملائه هو . ولكن إبن صاحب العزبة البحرية هو الذى كتبهما متطوعا . مساعدة للضابط فى عمله الوطنى واعجابا به . وقضاء لوقت الفراغ . الورق ملك خاله وهو مستورد من الخارج .

التقرير الأول :

مرفق بهذا التقرير شهادات رسمية تؤكد أنه لم يوجد أساسا شخص يحمل اسم الدبيش عرايس . وهذا يسقط التحقيق من أساسه ولا يجعل له أى مبرر . كل الجهات الرسمية أكدت عدم وجود شخص باسمه . ابتداء من سجل المواليد وحتى دفتر الوفيات ولا يعتقد أحد أن هذه الجهات اتفقت فيما بينها على الكذب . قد يعترض البعض على هذا . حيث تبدو الحكاية غير معقولة . حكاية الدبيش حيلة ذكية لإلهاء الحكومة والمسئولين فى المنطقة عن الواجب الوطنى فى ظرف دقيق يمر به الوطن الغالى . ثم من يثبت وجود الدبيش أساسا . لنتكلم بمنطق الأشياء . هل ترك صورة له ؟ . وإذا كان هاربا ، لماذا يهرب ؟ وهل يوجد ما يدفع مصرى الى الهرب فى حياتنا ؟ وان كان ميتا أين دفنت جثته ؟ وهل استخرج له تصريح دفن رسمى ؟ تبقى مشكلة زوجته وأولاده . انهم مازالوا يعيشون تحت سمع وبصر الكل . ولكنها ليست مشكلة . إنها مسألة عادية فى ريف مصر العظيم . صدفة زوجة ولكن زوجة من ؟ لاأحد يدرى . أولاد الناس يؤكدون أن زوجها الحقيقى مات منذ سنوات . وعندما حدثت حكاية الدبيش تصور البعض أنها ستكون فيها منفعة ما . أشاروا عليها بإدعاء أنها زوجة الدبيش حتى تضمن آلاف الفوائد . ومن يرفض الفائدة فى عالمنا ؟ صدفة لايمكنها أن تثبت أنها زوجة الدبيش . لايوجد عقد زواج رسمى . ولا صورة تذكارية لحفل الزفاف . كما تفعل الأسر الكريمة لتثبت لحظات سعادتها فى وجه الزمان . لا أحد فى الضهرية يذكر حفل زفاف كبير أقيم لشخص اسمه الدبيش . من المعروف فى الناحية أن حفلات زفاف أولاد الناس أو جنازات دفنهم . تبقى من الحوادث الهامة التى يؤرخ بها لحياة البلد . ولكن هل يتذكر أحد مثلا . حضور فرقة موسيقية من البندر ودورانها فى شوارع الضهرية . هل اقيمت ليلة حنة مشهودة سهرت فيها مطربات الناحية حتى الصباح ؟ ويجىء الذين يزعمون أنهم أولاده الى الدنيا لايذكره أحد . هنا لابد من طرح سؤال بسيط هل كان للدبيش وجود فى حياة الضهرية طوال العشرين سنة

الأخيرة ؟ من شاهده يدلى بصوته فى الانتخابات ؟ يذهب الى ناظر المدرسة يرجوه شطب أحد أبنائه من كشوف الملزمين لعدم استطاعته الانفاق عليه . أى عين رأته يتجول فى الأسواق أو فى المولد أو يلف ويدور فى المواسم والأعياد وحوله ابناءه الثلاثة يرتدون ملابس العيد الجديدة ثم من رأى أحد كبار البلد يدخل منزله ؟ هل له معاملات مع الحكومة ؟ أى خفير حضر يوما للتنبيه عليه فى أمر ما ؟ متى ورد له خطاب من مكتب البريد . ماهى آخر مرة حضر له موظف من التوفيقية بتلغراف يحمل له أنباء سارة أو حزينة ؟ أين الترزى الخاص به ؟ والحلاق الذى يحضر الى منزله ليحلق له ويقص شعر أولاده ؟ والتومرجى الذى يعالج الأسرة ويعطى أولاده الحقن ؟ البقال والجزار الذى يجر منه على الحساب حتى أول الشهر ؟ السؤال الأخطر : من يؤكد لنا حضور الطبيب الى منزله للكشف على افراد أسرته ؟ البيت حكاية أخرى . الأرض المقام عليها ليست ملك شخص اسمه الديش . والبيت لاتوجد أوراق تثبت ملكية الديش أو أى شخص آخر له . فى هذه الحالة كان يجب على كل الجهات المسئولة . أن تشهر حالة البيت والأرض . وإن لم يتقدم أحد لكى يثبت أنهما يقعان فى ملكيته تؤول للدولة ملكيتهما . ممثلها فى هذه الحالة مجلس القرية . نكمل رحلة البحث فى سجلات الجمعية التعاونية الزراعية . قائمة بطاقات الحيازة الزراعية ، مكتب رعاية عمال التراحيل ، إدارة تشغيل عمال الزراعة . هل يوجد اسم الديش ؟ كل هذا يوصلنا الى سؤال اساسى : هل وجد الديش أصلا ؟ لنتوقف أمام اسمه : الديش وهو مشتق من الدبش . والدبش مادة كانت تبنى منها بيوت المماليك . وحيث انه من الثابت تاريخيا ان المماليك ليس لهم وجود فى مصر كلها منذ مذبحة القلعة وهذا معناه انقراض مادة الدبش من حياتنا . وبالتالى انقراض الاسم . وتلك التى تدعى انها زوجته اسمها صدفة . وأى حياة تخلو من الصدف .. الكل يشهد انه لم يكن هناك ديش . وصدفة تقول عندما تحاول أن تكون صادقة . إنها كانت تنادى زوجها القديم بالديش فى ساعات الغزل والمداعبات والحب .

اكتفيت بنقل تساؤلات الناس فقط . يمكن لأى شخص أن يتأكد بنفسه من

صحتها أو كذبها . ومن يعترض على ماتوصلت اليه . له الحق فى ظل ضمانات حياتنا الجديدة . أن يتقدم الى جهات التحقيق ومعه مايثبت أن آدميا يحمل اسم الديش عرايس قد وجد . اتحدى الكل من الآن . بأنه لم يوجد من يحمل هذا الاسم فى الضهرية أو البحيرة أو دلتا نهر النيل أو الصعيد الجوانى . باختصار لم يوجد ديش فى بر مصر كله أو على ظهر الكرة الأرضية .

ملحوظة :

على من يتقدم ليؤكد أن خرافة الديش عرايس واسطورته حقيقة واقعة . أن يكون معه من الأوراق والمستندات أو الصور والتسجيلات الصوتية مايثبت قوله . لا أن يكتفى بمجرد الأقوال والبيانات وهى كثيرة . مطلوب منه تقديم أدلة يعترف بشرعيتها القانونية بدلا من الخطب الكلامية .

وثائق رسمية :

(١) يشهد مكتب سجل مدنى إيتاى البارود ، محافظة البحيرة بأنه لاتوجد بطاقة شخصية أو عائلية مستخرجة باسم المواطن : الديش عرايس وهذه شهادة منا بذلك من واقع السجلات والدفاتر الرسمية . ويشهد مكتب تجنيد وتعبئة المركز بأنه لم يتعامل مع مواطن اسمه : الديش عرايس سواء بالتجنيد أو التأجيل أو الاعفاء او الاستدعاء لخدمة الاحتياط . كم تقر ادارة الجوازات والهجرة بالمحافظة أنه لايوجد جواز سفر صادر باسم الديش عرايس من قبل وحتى تاريخ كتابة هذه الشهادة لم يتقدم شخص بهذا الاسم طالبا استخراج جواز سفر خاص .

(٢) بالبحث والتقصى فى دفتر مواليد قيد الضهرية . أثبت كاتب حجرة تليفون البلد الآتى :

* لايوجد فى حرف «أ» أى مولود يحمل اسم الدبيش . فى كل تاريخ الضهرية
لم أسجل ولم يسجل الذين عملوا قبلى انسانا يحمل هذا الاسم . سوى فى فترة
بعيدة وتاريخ ميلاده يقع فى القرن الماضى . وباقى اسمه مختلف عنه . ولم أعثر على
طفل اسمه : عرايس الدبيش عرايس . صحيح أن حرف العين به أكبر عدد من
الأسماء فى الدفاتر خاصة « العين باء » ولكن لايوجد هذا الاسم أبدا .

* بالنسبة لصفحات حرف النون أكثر من طفلة تحمل اسم نورسته وباقى
الاسم يبدو مختلفا ولا توجد نورسته الدبيش أبدا . ولا يوجد فى حرف الغين اسم
غباشى الدبيش عرايس . وهذا الاسم غير مدون فى الدفاتر طرفى .

* بحثت طويلا عن إمرأة باسم صدفة لم أجده . سألت المأذون بطريق رسمى
ان كان قد عقد قرانا بين رجل اسمه الدبيش وإمرأة اسمها صدفة . أكد لى أن هذا
لم يحدث . وأفتى إمام المسجد أن اسم صدفة غير مصرى ولا يجوز تسمية إمرأة
به . وان إطلاق كلمة الدبيش كإسم لانسان نوع من الالحاد والكفر والانسان
من خلق الله والدبيش نوع من الحجارة . فكيف نطلقه على آدمى كرّمه الله
ورسوله .

التقرير الثانى :

نتيجة للتحريات المضنية التى قمنا بها خدمة للعدالة . وسؤال الناس عن
الدبيش عرايس . عرفت الآتى من أفواه الناس . الذين أبدوا استعدادهم الكامل
للمثول بين يدى حضرة الضابط لكى يقولوا الحقيقة فى موضوعه . هذه التحريات
اشتركت أكثر من جهة فى اعدادها . أغلبهم من المسئولين أو من أولاد الأغنياء
وقعوا جميعا على مسودة التحريات . اشترك معى : رئيس مجلس القرية ، الطبيب ،
رئيس مكتب رعاية عمال التراحيل ، الاخصائى الاجتماعى ، ناظر المدرسة ،
العمدة . مسئول لجنة فض المنازعات بالاتحاد الاشتراكى . اجتمعوا خمس

مرات . اختلفوا حول الكثير من الأمور . خاصة ما يتصل بالبعد السياسى وراء
تصرفات الدبيش . طلب البعض مهلة من الوقت لكى يحصل على قرائن أو شهود
اثبات . ولأن السرعة كانت الطابع الوحيد للعمل . أجل هذا الى وقت المحاكمة .

من ناحية دخله ، قالوا انه مرتفع جدا . بسبب قلة الأيدى العاملة فى الريف
المصرى . هاجر الكل الى المدينة . ووظفت القوات المسلحة كل الذين سرحوا من
الخدمة العسكرية . ارتفعت الأجرة من عشرة قروش فى اليوم الى جنيه كامل . من
قبل كان يذهب الى العمل من بكة الشمس الى غروبها . تحول الى موظف
عمومى . له مواعيد رسمية . لايمكن ان نشاهده فى الحقل قبل التاسعة . يجب أن
يكون عمله بجوار الزراعية حتى يسأل المارين عن الساعة . ما أن يقترب من الثانية
عشرة ظهرا حتى يقول أن وقت راحته جاء ، تمتد القيالة الى الرابعة بعد الظهر .
عمل العصارى لايتعدى السادسة مساء . استمرار الحال قد يشكل خطورة على
المصالح العليا للبلاد . لا أحد يتصور مطالب الدبيش وزملائه مستقبلا .
لايستبعد أن يشترطوا شاى الساعة الخامسة على الطريقة الانجليزية . والنتيجة ،
جرت الأموال فى يدى الدبيش . يشاهد عند البقال والجزار ، والسمكرى ،
والترزى ، وتاجر الأقمشة الوحيد فى البلد . ليس من المعتاد ان يتردد أمثاله على
هذه المحلات . سفرياته الى إيتاى البارود وكفر الزيات ودمنهور كثرت . أحيانا لا
يعود من السفر الا فى اليوم التالى . شوهد بعض أبناء البنادر يزورونه أحيانا
ويقضون أكثر من يوم عنده . يتحدثون معه فى هذه الزيارات بأصوات لايسمعها
غيرهم . عندما سئل عن الزوار الغرباء قال أنهم اقرباؤه من جهة الأم . كثرت
الزيارات . من قبل كانت تتم كل شهرين ثم أصبحت كل أسبوع . يقال ، والله
أعلم ، أنه أرسلت للدبيش أموال وزعت على زملائه من العمال الزراعيين .
البعض يزعم أنه سافر الى جناكليس ومديرية التحرير حيث التقى بعمال التراحيل
من أبناء الضهرية ، زيادة فى الحيطة والحذر . لم ينفق من الأموال . خوفا من لفت
النظر اليه . استمر يعمل عند الآخرين كالمعتاد . دون أى تغيير . أتت حكاية
المعونة . الهدف مما فعله الدبيش واضح . وهو اشعار الناس بعدم الرضا عن زيارة

الرئيس نيكسون . ولكن رغم المحاولات التى بذلت . وهى كلها ضد الوطن . إلا أن استقبال موكب الرئيس سيفوق كل حدود . أولاد الناس وكبار ملاك الأراضى والأغنياء وكلهم من المتعلمين ، والبعض منهم أكمل تعليمه فى الخارج يدركون مصالح الوطن . أما الدبيش وأمثاله . وهم يعدون فى أحسن الأحوال أشباه آدميين أو أنصاف بشر . فلا يعرفون سوى المصلحة المادية المباشرة فقط . هنا يجب أن نتوقف أمام الحادث الرئيسى . وهو اعتداء العامل الزراعى على الطبيب . أثناء قيامه بتوزيع هدية الشعب الأمريكى الصديق للشعب المصرى المناضل . ان العدوان على الطبيب يتصل بسياسة الدولة وسيادتها كنظام حكم يجب احترامه . فضلا عن أنه عدوان على المعانى الوطنية التى كان يمثلها الطبيب وهو يقوم بعمله . هذا يربط العدوان الصغير بالتيار الذى انتشر فى الضهرية قبل زيارة الضيف الأمريكى . حيث نظرت مجموعة معينة الى الزيارة الكريمة بامتعاض بل ورفض . عند المجموعة آلاف الحجج التى تبدأ من مصلحة الوطن والخلافات العقائدية . مع محاولة إعادة حك جراح قديمة عفا عليها الزمان . وقت العصارى تحدث أهالى شهداء من الحروب الأربعة . فى حوارى الضهرية تمشى شبان بترت أذرعهم وأرجلهم والبعض يسير بعين واحدة وهم من ضحايا حروبنا مع العدور . كان لظهورهم المفاجىء أكثر من دلالة . مع حديثهم عن امداد امريكا لاسرائيل بالسلاح . نحن نعرف مقدما منطلقاتهم وأهدافهم . أن موقفهم ضد مصر على طول الخط . لايمكن أن يكون لمصلحة أحد سوى الجهات التى تحركهم . نحن لانستبعد أن يكون هذا العامل الزراعى مأجورا . وأن عدوانه على السيد الطبيب حدث لاستخدامه ضد المعونة الأمريكية والزيارة . خاصة وأنه حدث قبلها بثمان وأربعين ساعة فقط . وانتشر الحادث فى البلد فورا . مصحوبا بكلام عن أمريكا . من الصعب على الدبيش القيام بهذا بمفرده . توجد جماعة أو تنظيم نفذ العملية . وهناك جهة ما . أنفقت على الحكاية أموالا ضخمة . ثم كيف يستطيع عامل زراعى أن يضرب طبيبا . تلك مسألة تمثل خروجا على المألوف فى حياة الريف المصرى كله . الطبيب موظف رسمى فوق العادة كائن

بشرى من نوع خاص . وهو فى نظر الفلاحين الوحيد القادر على منح الشفاء ومنع المرض . وتلك احدى صفات الألوهية . مما يجعل له احتراما يصل لدرجة التقديس عند الجميع . والدليل انه لايوجد فى الريف من يناديه بكلمة يادكتور . بل يا سيدى أو يا سعادة البيه . هل يتصور أحد أن يقوم عامل زراعى صغير بالعدوان على الطبيب . ثم تدبير عملية تركيب البطن نفسها وهى مسألة لايصل اليها ذهن عامل زراعى بسيط فى هذه النقطة طلب الطبيب اضافة جملة علمية . قال فيها ان عقلية الريفى لاتستطيع أن تتعامل مع مجردات ولا تعترف الا بالأشياء التى لها وجود مادى ملموس . حكاية تركيب البطن بالطريقة التى أتت بها من أجل الحصول على المعونة لايفكر فيها الا شخص آخر ليس من أبناء البلد . انتهت ملحوظة الطبيب .

ثمة أصابع خفية حركت الموضوع . ونحن نقول هذا اخلاصا للوطن ولكى نضع أمام المسئولين صورة حقيقية لعمل اللازم . ذلك أن معاقبة هذا العامل الزراعى مطلب وطنى وقومى وسياسى ونضالى . تفرضه علينا اللحظة الراهنة فى تاريخ مصر العزيزة الغالية والله الموفق .

معلومات عامة :

الدبيش عرايس كمواطن مصرى . يعد هاربا من الخدمة العسكرية ولا يعترف بكل أنظمة الحكومة المصرية رغم أنه يعيش على أرضها منذ لحظة ميلاده . لم يثبت أولاده الثلاثة فى سجل مواليد الضهرية . لم يستخرج لنفسه بطاقة شخصية أو عائلية . ليست له تذكرة انتخابية ولا بطاقة عضوية فى الاتحاد الاشتراكى العربى وهو التنظيم السياسى الوحيد فى البلد . لاتوجد له بطاقة تموينية وهذا دليل غناه الشديد . من يجرى وراء المواد التموينية هو الذى عانى من احتياج حقيقى لها . وفى الوقت الذى يحرص فيه أغنياء البلد وأكابر الناس على صرف التموين . نجد الدبيش ليس فى حاجة اليه . يوجد فى الضهرية سجل رسمى لعمال التراحيل . الا أن

الدبيش رفض قيد اسمه فيه . حاول رئيس المكتب ضم الدبيش للدفاع عنه ورعايته . الا أنه رفض وقال انه مكتب لنهب عمال التراحيل .

الدبيش لايصلى . نادرا ما يدخل مسجد . فى المرات القليلة التى صلى فيها . بدا كالسكران ولا يحفظ فى قلبه كلام الله . وفى المآتم يدخن وقت ترتيل القرآن الكريم وهذا محرم فى الشرع الاسلامى . وعندما تحل بالوطن المحن والمصائب لايبدو منفعلا مثل المواطنين الشرفاء وهو لايتصرف كالمصريين فى اظهار عواطف الحزن والفرح . ولا يصادق الا من هم مثله عمال يومية أو عمال تراحيل . ويعادى كل أولاد الناس فى البلد . وما أن يحدث لأى منهم حادث ــ لاقدر الله ــ يشمت فيه بصوت مسموع وبشكل علنى . ويدخن الجوزة وهذا طموح غير مشروع بالنسبة له . أكابر البلد أسياده يدخنون الشيشة التى تعد تطويرا للجوزة وهذه محاولات يجب الوقوف أمامها بحسم .

أصغر جريمة فى هذه الجرائم عقوبتها تصل الى الأشغال الشاقة المؤبدة أو ربما الاعدام وبعضها مخجل لشرف الانسان . كيف يتهرب مصرى أصيل من التجنيد فى زمن تخوض مصر فيه أربع حروب فى حياة جيل واحد من أبنائها ؟ وكيف يعترض مواطن عادى لايفهم أى شيء على السياسة العامة للدولة ؟ وكيف يعتدى أحد أنصاف البشر على بشر متكامل ؟

الاجتماع الأخير بين أصدقاء العمر

انتهى الضابط من التحقيق ظهر الثلاثاء . ولكنه لم يتخذ قرارا بشأن الموضوع ، أجله لحين لقائه برئيس مجلس القرية والطبيب لكى يتناقشوا فى الأمر . دعا صديقَىْ العمر الى اجتماع عمل صغير . وقت العصارى جلسوا فى شرفة فيللا الطبيب ، ابتسموا لبعضهم ، ضحك رئيس القرية . قال ان رب ضارة نافعة . من قبل تصوروا ان وفاة هذه الكائن قد تعصف بهم ، خاف الكل على منصبه . وبكى أحلام الغد . بفضل حصافة حضرة الضابط ، مرت المسألة بسلام وتحولت الى صداقة انسانية نادرة بين ثلاثة رمى بهم سوء الحظ وخلو جيوبهم من كروت علية القوم أو خطابات التوصية . وعدم وجود خواتم زواج من بنات أصحاب الحيثيات فى أصابعهم ، رمى بهم فى جحيم اسمه الريف .

فى لحظة السعادة الطارئة . فاجأ الطبيب صَديقَىْ عمره . حُول اجتماع العمل الى دعوة غداء خفيفة . قدم فيها لاثنين أعز من الأخوة الاشقاء . بعض المسرات القليلة والبريئة . فى هذا الواقع الشحيح الذى ضن عليهم بأبسط الأشياء . اعتذر الضابط بضيق الوقت ورئيس القرية بمواعيد القطارات المسافرة الى الاسكندرية . ولكن الطبيب أصر على دعوته . تحركت سيارة الاسعاف على الفور . ذهبت الى كفر الزيات وطنطا ودمنهور . أحضر سائقها لوحا من الثلج وبعض زجاجات البيرة والخمور . وكميات من السجائر التى لم يرها أحد من قبل فى الضهرية .

خرجت خادمة من منزل العائلة التى تأمل فى مصاهرة الطبيب . تحمل صينية نحاسية تشى بعز قديم مغطاة بمفرش أبيض . تبدو تحته الأوانى والأطباق واضحة حبر الرجال الجالسين على المصاطب . قدمان تقفان فى الهواء فوق الصينية . قال أحدهم : إنهما قدما دجاجة ضخمة . أصر آخر على أنهما قدما ديك رومى . أقسم أحد العاطلين بلا عمل ، على المصحف الشريف أنهما قدما أوزى . خروف صغير فى السن وأنه شاهد الجزار يذبحه صباح اليوم بنفسه سرا . ثم شوى على نار هادئة فى شواية بوتاجاز .

ردوا عليه :

— بتقول إيه ؟

أخذ سمت العارف بكل شىء . قال للجالسين حوله . انهم ان كانوا مازالوا يستعملون الكانون والفرن ولا يجدون الحطب فليس معنى هذا أن كل الناس تفعل مثلهم . بعض العائلات اشترت البوتاجاز والتليفزيون والغسالة . أطلت أحلام المحرومين من عيونهم . تصورت العقول البسيطة ساعتها . أنهم لم يخلقوا لهذا . واحد من الجالسين قرر فى نفسه . دون أن يعلن قراره للآخرين . أن ينتظر الخادمة وهى عائدة من الوحدة . لكى يسألها عن القدمين المرتفعتين فى الهواء . ويطلب منها أن تحكى له عن الوليمة .

هكذا تكون الأمور فى الأعالى .

أتت نسمات المساء الطرية . مست العقول والقلوب . حلقوا فى سماوات من صنع الخيال . مر المساء وانتصف الليل وهم يتحدثون فى كل الأمور . السياسة والمال ، التحقيق والقضية . طموحات الشباب الأول . معاون النقطة أصبح مديرا للأمن العام . والطبيب وزيرا للصحة ورئيس مجلس القرية كان متواضعا فى طموحاته . قال انه يكفيه جدا منصب محافظ الاسكندرية . ضحكوا . تعالت الأصوات . فى الخارج جلس الخفير والعسكرى ، والتومرجى على الأرض فى انتظار ان ينتهى البهوات رؤساؤهم من طعام الغذاء والعمل . تعجبوا من الضحكات .

منى كل مهم نفسه بفضلات الطعام وبقايا الخمور والبيرة . تنحنح الضابط . ذكر صديقا عمره . أن أهم الموضوعات التى يجب أن يتحدثوا فيها . هى حكاية الدبيش عرايس . هبت عليهم نسمة هواء محملة برائحة أرض تروى الآن . تحدث الضابط عن أهمية أن يتوصل التحقيق الى نتيجة ما . الموقف صعب ودقيق . أمامهم احتمالان لاثالث لهما : إما أن يقال أن الدبيش كان موجودا . وفى هذه الحالة تستمر الاجراءات التى لابد وان تدينه . من السهل اثبات أنه على صلة بجماعة أو تنظيم يعمل ضد الدولة ومصالح الوطن . ان قررنا الاعتماد على هذه الخطة . ويمكن ان نسميها د.م وهى اختصار لكلمتى : الدبيش موجودا . يجب تجهيز الشهود والوقائع والأقوال . والتحقيق لن يقفل . سيظل مفتوحا ولن يكتمل الا بعد القبض على الدبيش ولأننا نعلم أن ذلك لن يحدث . فلن يتم قفل التحقيق أبدا . وان كنت أرى ان ذلك يحمل بداخله بعض المخاطر . وقد أنقل من العمل فى النقطة قريبا . بعد مرور الموكب ونجاح الاستقبال سأرقى الى رتبة الرائد ومعى تأكيدات بهذا من جهات عليا . ولن تصبح النقطة أهلا للرتبة ولا مكانا للطموحات . فضلا عن أن المعاون بها يجب أن لاتزيد رتبته عن النقيب . بعد حضور ضابط آخر . قد ينبش فى الأوراق القديمة . ما الذى سيمنعه من اجراء تحقيق جديد . وهذا قد يؤدى الى كشف الموضوع كله . ويجرنا الى فضيحة ستأخذ طابعا سياسيا .

قاطعه رئيس القرية :

— فال الله ولا فالك .

أكمل أن ركبه سابت والدم هرب من عروقه عندما سمع كلمة الفضيحة لايستطيع أحدهم أن يتحمل ربع خبطة . فعيدانهم مازالت طرية .

الحل الوحيد — قال الضابط — أن نعتمد على الخطة البديلة د . غ ، وهى تقوم على أن الدبيش لم يوجد أساسا .

— وهل دا معقول ؟

خرج السؤال من فم رئيس القرية مغلفا بالحيرة والدهشة :

— طبعا معقول جدا .

— والناس ؟

ضحك الضابط . وهو يضع فى فمه قطعة كبيرة جدا من فخذ الديك الرومى . ويدفعها بنصف زجاجة بيرة :

— ناس مين . الديبش اتولد علشان يموت . هوه ميت من يومه الأول . الاختلاف فى الأسماء بس . كان ممكن يموت فى بيته بدلا من الوفاة فى المستشفى ، هل المسافة تبدو بعيدة بين النهايتين ؟ المشكلة هيه الاسم . الأولى وفاة والثانية قتل . لماذا نتعب أنفسنا ؟ الديبش عرايس متوفى منذ سنوات . أطول من عمره وعمر أجداده . ثم مين فى الضهرية يقدر يعترض ؟

— وأولاده ؟

أغرق الضابط فى الضحك . قال انها نكتة . ان قليلا من الدقيق الفاخر الذى وفره الدكتور من التوزيع . كافية لاغلاق فم البلد كلها . نحن فى الريف ولسنا فى القاهرة . ولكن هذا ليس معناه اهمال الموضوع . يجب وضع أسوأ الاحتمالات فى الاعتبار . حتى تكون هناك قدرة على التصرف اذا انكشف الأمر .

سألهما :

— مين العناصر الثورية فى البلد ؟

رئيس القرية والدكتور هما اللذان ضحكا هذه المرة . لم يكن ضحك سرور بقدر ماكان بتأثير ما شرباه . طالت الضحكات .

هتفا فى صوت واحد :

— إنت فى الريف ياحضرة الضابط .

كرر الضابط سؤاله :

— انا باسأل عن العناصر الثورية ؟

أتاه صوت الدكتور منفردا :

— أنت فى ريف مصر سنة ١٩٧٥ . عمل سياسى نو ، فهم موضوعى نو ، تجمعات نو ، مواقف جماعية نو . وعى اجتماعى نو . الحكومة حكومة والشعب شعب . العشرين الف اللى هنا . شعارهم معروف . قال الله تعالى فى كتابه الكريم . وهو أصدق القائلين « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » واحنا اولى الأمر اللى قصدهم القرآن طبعا مش حاكلمك عن الشعور الدينى فى الريف .

شرح الضابط فكرته . قال انه يقصد بالعناصر الثورية . كل من يستطيع أن يسبب لهم بعض المتاعب . فيما بعد .

قال رئيس القرية :

— أنا فهمتك ولك الحق . ولكن دى صورة واقعية للبلد . يحكمها مجلس قرية أنا رئيسه ، فيه الاتحاد الاشتراكى . أمينه العام موظف فى المجلس . وهوه المسئول عن رعاية وتشغيل عمال التراحيل . ومتصور أن مجرد تركه فى حاله نعمة . الولاد التلامذة . فى المدارس والجامعات بعيدا عن البلد . الحمد لله أعلى مدرسة هنا هى الاعدادية . الاقطاعيون الجدد وأغنياء هذه الأيام . كل واحد شعاره ياللا نفسى . الفلاحين الصغيرين والفلاحين المعدمين اللى على كف الرحمن . يعنى اللى بدون أرض . والعمال الزراعيين وعمال التراحيل . الحالة صعبة عليهم . كل واحد بيواجه المشكلة العامة كفرد . وهم تعبانين لحد الموت .

حذر الطبيب :

— ماتنساشى ان فيه واد من البلد بيكتب روايات وبيشتغل فى الصحافة

اسمه ....

أكمل رئيس القرية :

ــ اعتقد أنه لايشكل أى خطر . حضوره للبلد بيبجى زى السواح حط على عينيه نضارة . ولبس بنطلون وعمل أفندى . وبعدين يقدر يعمل ايه ؟ حتى لو كان رئيس تحرير جريدة ؟ الكتابة عن وفاة الدبيش حاتجر زيارة نيكسون بشكل يغضب الكبار اللى فى مصر . وما فيش كاتب يقدر يعملها سواء صغير أو كبير . ثم إن أبوه له عندنا فى القسم الاجتماعى خدمة . طالب معونة أسر المجندين ويمكن تعمل له حاجة فصاد حاجة .

أفاق الدكتور قليلا . أحضر ورقة وقلما . بدأ يكتب أسماء الذين عرفوا وشاركوا فى الموضوع رئيس مجلس القرية ، الضابط . الدكتور . سائق سيارة الاسعاف . ساعى مكتب رئيس القرية . العسكرى النوبتجى فى النقطة . طبيب الاستقبال فى مستشفى التوفيقية ، التومرجى ، سائق سيارة نقل الموتى . ترفى مدافن الصدقة . هؤلاء جميعا لن يتكلم واحد منهم لسبب بسيط : وهو إن الكل مشترك فى الجريمة . ولا بد أن يناله الأذى قبل غيره .

طلب رئيس القرية شطب اسمه من قائمة الذين اشتركوا فى العملية . لقد قام بعمله كرئيس للقرية فقط . وانتهى دوره فى الحكاية بإرسال العامل الى التوفيقية .

ــ ثم ان الولد لازم ضربتوه فى النقطة .

قفز الضابط من مكانه . أعلن أنه ترك العامل الزراعى سليما كالجنيه الذهب ولا يعرف ماذا حدث له الا فى منتصف الليل . عندما إشتد عليه المرض . تكلم الطبيب . قال انه من موقع تخصص يؤكد ان الفيصل فى المسألة هو تقرير الطبيب الشرعى عن الوفاة ، رد الضابط بسرعة . لم يتم عمل تقرير بالحالة . قال الطبيب : انه آسف . سيكذب حضرة الضابط . هناك تقرير يقول ان العامل الزراعى تعرض لضرب أدى الى الوفاة . وهو يذكر حضرة الضابط بأمرين : ان

عمود العامل الزراعى الفقرى كان مكسورا وعينه اليمنى كانت مفقوءة . وأنه من السهل العثور على هذا التقرير . بل انه مضطر ان يعلن لزميليه فى وضوح الشرفاء أن لديه نسخة من التقرير .

أكمل :

ــ طبعا حضرة الضابط برىء من الحكاية دى . واللى عمل ده العسكرى النوبتجى ولازم يكون السبب خلاف بين السجين والسجان بالليل . وأنا رأيى أننا نكيف القضية على هذا الأساس .

رد عليه الضابط :

ــ مين يضمن سكوت العسكرى والعملية كلها غير قانونية .

تمكن رئيس القرية من السيطرة على أعصابه بصعوبة . أمسك بالمنضدة . لكى يمنع يده من الارتعاش . انتظر حتى سكت الضابط والطبيب . قال بصوت منطفىء :

ــ الفلاحين اللى مش عاجبينكم . أنصاف الآدميين . عندهم مثل بيقول : ما شافهومش وهمه بيسرقوا . شافوهم وهما بيتقاسموا . هل نطبق المثل ده احنا . العدو واحد . والخطر واحد . لازم نتحد فى مواجهة المصيبة . دا مطلب أساسى لايوجد اختيار . أنا ضد أى خلافات . الباقيين لازم يسكتوا . أعتقد أن حضرة الضابط يقدر يقفل أى فم بالتهديد أو حتى الحبس أو الغرامة . لا أقبل ان العملية تنقلب ضد كدا . الظفر لايمكن اخراجه من اللحم . ومرة اخرى اقول ، ان الضابط والدكتور ورئيس القرية هدأوا . ارتفعت ثلاثة كؤوس . لامست بعضها البعض . لم يكن اللمس رقيقا .

ــ فى صحة

توقفوا . بحثوا عن الاسم . بدون اتفاق سابق نطقوا :

ـــ الميت الحى.

ضحكوا ، وأكملوا فى صوت واحد :

ـــ الديش عرايس

بدأوا يغنون بأصوات تفوح منها رائحة الخمر الغالية :

ـــ اذن ننفذ الخطة د.غ .الديش لم ولن يوجد أبدا . ماحدث كان كابوسا او حلما مزعجا أو احدى نوادر جحا . أو حدوته تحكى فى ليالى الشتاء الباردة .

اللحظة التالية كادت تفسد الاتفاق كله . تساءل رئيس القرية عن مصير التحقيق . ضحك الضابط . قال انه سيؤشر عليه بالحفظ لعدم وجود شخص يحمل هذا الاسم . وانه قام بالتحقيق بناء على بلاغ كاذب من إحدى الجهات أو الأشخاص ويجب معاقبة هذه الجهة . اعترض الدكتور . حفظ الورق فى أى جهة خطر عليهم جميعا . ويجب اعدام الأوراق الآن . رفض الضابط . قال انه لوانكشف الأمر فيما بعد ستكون هذه الأوراق دليل براءتهم الوحيد ، كادوا ان يصلوا الى حافة النزاع . أتى الحل سهلا . ستوضع الأوراق فى الخزينة الخاصة بمجلس القرية . فى عهدة رئيس القرية .

كان الوداع مؤثرا . كانوا سكارى . ومع هذا لابد من مبيت الضابط فى التوفيقية . غدا الثلاثاء . اليوم السابق مباشرة على مرور الموكب . رئيس القرية لايستطيع أن يقضى يوما واحدا بعيدا عن نور العين . وشعاره فى هذا واضح : البعيد عن العين بعيد عن القلب . والتواجد بجوار الحبيب نوع من الحفاظ على شجرة الحب . وقفوا أمام الفيللا . كانوا سعداء بنجاتهم من هذه الورطة العابرة . شعروا بغناء داخلى عذب ورقيق فكروا فى الرقص والغناء أو السفر الى أبعد مكان فى العالم . رمى كل منهم نفسه فى احضان الآخر . وسمع الخفر والعساكر صوت قبلات طويلة . وتنهدات حارة . أثناء الوداع المؤثر اقترب ساعى المجلس من رئيس القرية . همس فى أذنه أن الطلب جاهز . غمزه الرئيس فى يده . أن ينتظر حتى

يمشى الضابط والطبيب . ركب الضابط بوكس النقطة . رفع يديه وبهما الكاب . محييا صديقى عمره . اتجه الطبيب الى البلد . ذهب الى منزل الأسرة المصرة على مصاهرته . لكى يشكرهم بنفسه على الطعام الذى فاجأوه به . وليصل معهم الى اتفاق بشأن تمويل مشروع العيادة . المكان والأدوات والأثاثات واللافتة والدعاية . كان يدرك أنه لن يصاهر أحداً . ولكنه همس لنفسه :

ـــ الحاجة أم الاختراع .

رئيس القرية لم يذهب الى الاسكندرية فورا . كما كان يتصور . ضيف منتصف الليل الغريب والغامض أخره . فكر فى أن يأخذه معه إلى الاسكندرية . وليستغل الوقت الذى تقطعه السيارة فى الطريق . وهو أكثر من ساعة فى الحديث معه . فى الأمر الهام الذى أحضره من أجله . راقت له الفكرة وتصور أنه لايفعلها سوى كبار المسئولين وأن مجرد ورود الفكرة على ذهنه . بشائر خير . نظر الى السيارة . أدرك أنه سيكون هناك ثالث لهما . هو السائق . لابد من الركوب بجواره . منصبه لايسمح له بالركوب فى الصندوق الخلفى . تنازل عن فكرته . وأمر أن تفتح قاعة الاجتماعات الملحقة بمكتبه وبأن يعد لهما دور شاى أثقل من الحبر . وأكثر سوادا من ليل الريف الذى يحيط بهم .

وجدها الضيف الغريب فرصة لكى يمسك بأول خيط الحديث .

ـــ إن شاء الله بيضة .

التفت رئيس القرية . رأى السائر بجواره . رجل غريب . تقف ملامحه على الحافة بين القرية والمدينة . على الرأس طاقية حولها لاسة لامعة . يرتدى سترة من مخلفات الجيش . وبنطلونا أخضر اللون تحت السترة صديرى بلدى . أسرع رئيس القرية الى القاعة . أجلس الرجل قبالته . ولأن الزجاج الموضوع على مائدة الاجتماعات كان لامعا . انعكست عليه صورتيهما معا .

حكاية هذا الاجتماع . الذى اشترط رئيس القرية سريته المطلقة . ولم يعرف به

غير ساعى المجلس وحده . احتاط رئيس القرية فى السرية لدرجة أن أعد طلبا مقدما له للحصول على معونة عاجلة من المجلس . لكى يقال أنه فتح المكتب بعد منتصف الليل . لبحث الحالة العاجلة . فهو رجل يسهر على مصالح الرعية . الغريب الغامض لم تكن له أية علاقة بالمعونة . هو رجل قدم نفسه للمجلس على أنه قادر على عمل خدمات من نوع خطير . لدرجة أنه يستطيع رشوة سائق قطار الموكب الذى سيمر . وبذلك يتأكد رئيس القرية من توقف الموكب فى التوفيقية . لمدة ثلاث دقائق . حتى يضمن تحقيق الأحلام المؤجلة .

— ممكن أتعرف بحضرتك أولا ؟

أتاه رد الضيف حاسما فى هذه المسألة . نظر فى كل الاتجاهات . طمأنه رئيس القرية الى السرية المطلقة . قال بصوت خافت ان الحكاية أصعب من أى تصور . وأنه يطلب إعفاءه فى مسألة ذكر الاسم . والجهة التى ستتولى التنفيذ أو الشخص الذى سيصل اليه المبلغ . بعد نجاح العملية سيحضر الى رئيس القرية فى مكانه الجديد الرفيع . هناك سيكون من صالحه أن يذكره بنفسه . كلمة السر التى سيقولها له من خلال الحراس والمخبرين :

— أنا ضيف نص الليل الغامض .

تأكد رئيس القرية من جدية الموقف . ثقة الغريب فى تحقق الأحلام أسعدته كثيرا . نظر الغريب فى ساعته . قال انه لا يوجد لديه وقت :

— والمطلوب كام ؟

— ١٠٠ جنيه مقدما . مفيش ايصال أو ورق أو أى دليل على الاتصال بيك .

— والمؤخر ؟

رد الرجل الغامض :

— دى لايعلمها الا الله . المؤخر مش مبلغ ثابت . يحدده المنصب الجديد اللى حاتوصل له . ممكن يكون ألف جنيه وممكن يكون خمسة وقف الرجل الغامض قال انه مضطر للمشى فى السابعة من صباح اليوم . أى بعد سبع ساعات ، سيمر فى حالة ما اذا كان رئيس القرية قد وافق . عليه أن يترك المبلغ مع ساعى المجلس . وسيكمل هو الباقى . صافح رئيس القرية الرجل الغامض . استوقفه قليلا . طلب منه أن يشرح له . كيف يكون توقف الموكب تحقيقا للآمال .

رد الرجل :

— حضرتك رئيس بلد . وسيد من يفهم . وقوف الموكب فرصة العمر . حاتصافح الضيوف . تقدم لهم هدية . كل مسئول فى البلد حايعرفك . الهدية مقدمة لضيف دولى . لازم يتعرف اللى قدمها . حاتتم المسألة بعد كده كالمتبع . لاتنس ان الهدية حاتقدم لأهم رجل فى العالم . تخيل علاقتك بالجهاز الحاكم هنا . بعد توقف الموكب . الناس حاتعمل لك ألف حساب وعلشان تحصل على الباقى . دا يتطلب منك انك تتصرف بشكل غامض . ودا يوحى بأنك لك اتصالات عليا مع الكبار اللى فى البلد .

صاح رئيس القرية لنفسه فى هياج وفرح :

— هدية من رئيس مجلس قرية الضهرية بحيرة لأهم وأخطر رجل فى العالم .

بسرعة أنهى المقابلة . فكر فى تدبير المبلغ المطلوب للرجل الغامض . وفى اعداد هدية لم يحدث مثلها . لتكون جاهزة . قبل ان يغادر رئيس القرية قاعة الاجتماعات ، أحضر له الساعى بعض الأوراق المستعجلة التى تركها له سكرتير المجلس من العصرية . جلس رئيس القرية . أخذ يقرأ ويوقع . الورقة الأولى كانت قرارا اداريا لتعطيل كافة المصالح التابعة للمجلس يوم الأربعاء الموافق ١٣ يونيو ١٩٧٤ وهى ديوان مجلس القرية ، المركز الاجتماعى ، الحمامات . مكتب البريد ، الجمعية التعاونية الزراعية للضهرية . الجمعية التعاونية الزراعية لحصة الضهرية .

المستشفى . المدرسة الاعدادية . مدرسة الوحدة المجمعة . مدرسة عسران عبد الكريم . مكتب تحفيظ القرآن الكريم . كذبا وافتراء مقدمة المذكرة تقول ان العاملين فى هذه المصالح . طلبوا اجازة بدون مرتب عن هذا اليوم . لكى يتمكنوا من القيام بالواجب الوطنى فى استقبال الضيف الأمريكى العظيم . القرارات الأخرى كانت خاصة باعتمادات مالية وسلف وتحويل مبالغ نقدية من صندوق تنمية المجتمع الريفى . للانفاق على الاستقبال . مع رجاء بصرف الشيكات على وجه السرعة . لاستكمال الانفاق وتكليف لجنة اضافية للاستقبال . وطلب سلفة شخصية لرئيس القرية . كل القرارات كانت تتصل بالحدث الرئيسى : مرور الموكب يوم الأربعاء القادم . (٨)

---

(٨) سيخجل رئيس القرية مما سأقوله الآن . وقد يتعرض لعائلتى بشكل أو بآخر ولكن لابد من ذكره . وهو يتصل بالضيف الغريب الغامض . أو ضيف منتصف الليل . حضر الضيف فى الموعد المحدد . وجد الأمانة جاهزة فى مظروف حكومى مطبوع عليه اسم مجلس القرية وعنوانه ورقم التليفون . غضب الرجل الحذر . مزق الخطاب وثار . عد المبلغ ثم مضى بعد ساعة . حدث ما أوصل رئيس القرية الى حالة ذهول تامة . فى الاجتماع الموسع الذى عقد فى محافظة البحيرة . فى الثامنة من صباح الأربعاء . التقى رؤساء القرى والمدن التى سيمر فيها الموكب داخل المحافظة . قبل الاجتماع . بدا كل منهم يتحرك . بعظرسة وتصلب كأنه يخفى عن الآخرين أخطر الأسرار . بدأوا يتصرفون بشكل أكبر من مناصبهم الصغيرة . كادت تحدث بعض الصدامات بين الصغار والكبار لولا دقة الموقف . بمرور الوقت تساهل بعض رؤساء القرى والمدن فى الأسرار الخطيرة لدى كل منهم . أخذ رئيس قرية صديقا له فى ركن هادىء . أسر له فى أذنه . حكاية ضيف منتصف الليل . وعده بأن يرفعه الى منصب أعلى . بعد أن يضربه الحظ لفوق . ذهل عندما قال له الآخر . أنه كان ينوى ان يفعل هذا معه . ولكنه سكت لتكون مفاجأة له . انتشرت الهمسات . خبطت الأيادى . اتسعت العيون فى دهشة . اكتشف السادة رؤساء القرى والمدن جميعا . ان ضيف منتصف الليل ، زارهم ووعدهم بمنصب لايقل عن محافظ وقد يصل الى وزير . وأنه أكد لكل منهم ان الموكب لن يتوقف سوى فى قريته أو مدينته هو . أوصاف الرجل واحدة وقت زيارته لكل منهم واحد ولحظة مروره هى هى . بعد الاجتماع تحول الأمر الى نكتة سخيفة . مبكية ومضحكة معا . عادوا الى قراهم ومدنهم . أوهم كل منهم نفسه بكذب الآخرين . أو توهمهم زيارة رجل منتصف الليل له وحده . وما زالت فى قيعان النفس . مساحات للمنى والأحلام .

الكتاب الثالث

صدفة

نورستة

غباشى

عرايس

الغلبان

وأخرون

من قال ان السيف
يغني عن القلب الجسور ؟

تساؤل من زمن أدهم الشرقاوى

الى من يهمه الأمر : قتل الديش

فى قريتنا مثل يقول ، مادامت النهاية تخلو عن البداية نعيش راضيين ، يبدو ان المسافة بين المثل والواقع بعيدة. البداية أمر من الصعب تحملها. الناس، استمروا فى المكابرة والعناد اليومى فى انتظار نهاية فى حلاوة الشهد . لكنها لم تأت أبدا . كنت أتصور ان من يكتب عن حادثة ما . بعد وقوعها مباشرة . يكون من السهل عليه . ان يلم برعونة كل الأطراف فيها . الكل لحظة وقوعها يؤكد أنه على صواب . وفعل ما فرضته عليه الظروف . وأنا أكتب عن مقتل الديش اكتشفت ان ذلك صعب . لم تكن كل الأطراف رعناء . هناك طرفان الفاعل والمفعول به . أو أصحاب الأفعال والذين يقدمون ردود الفعل فقط .

رحل الضابط ، مر الموكب بسلام . ولم يعرف أحد فى البلد نتيجة التحقيق . ظلت الضهرية ــ ككل القرى ــ تتحدث عن مرور الموكب . فى قريتنا ضحكوا كثيرا على رئيس مجلس القرية . قالوا انه انقذ من الموت بأعجوبة . عندما اقترب القطار من المحطة . وهدأت سرعته . تصور رئيس القرية أنه سيتوقف . اقترب من حافة الرصيف . كاد أن يقع على القضبان . لولا تدخل أولاد الحلال . فى اللحظة المناسبة أنقذوه من الموت قبل أن تتحقق الأحلام . لم يتوقف القطار . من الخجل أعطى رئيس القرية لنفسه إجازة طويلة . وسافر الى الاسكندرية . وان كان

استقبال البلد للموكب فاق حتى محطة دمنهور عاصمة المحافظة كلها . قيل ان كل المسئولين شعروا بالغيرة من الضهرية ، لهذا لم ينس رئيس القرية أن يكتب عنوانه بالتفصيل قبل ان يقوم باجازته . ترك أرقام عشرة تليفونات من الممكن الاتصال به فيها . ان تم استدعاؤه من قبل المسئولين فى أية لحظة . بعد مرور الموكب بأيام حضر التومرجى . راجت قصة وفاة الديش بين الناس . مات الديش اذن . أود أن اعرف بماذا يشعر القارىء عندما أؤكد له وفاة الديش ودفنه فى مكان ما . ولكن الاتصال بيننا من طرف واحد ومقطوع . زاد الكلام فى الضهرية أضاف كل واحد حكاية من عنده . قيل فى أسباب وفاة الديش ان ضابط النقطة قام بجمع العناصر الخطرة على الأمن . بناء على تعليمات صادرة من أعلى . أو بمبادرة منه هو شخصيا . قبل مرور الموكب بأيام . وأودعهم فى الحجز (رهن التحقيق) . هكذا دون أمام ، أسماؤهم فى سجل الحجز . كل ليلة ، حتى تبدو العملية قانونية فى نظر من يمر للتفتيش . اتبع الضابط طريقة مبتكرة فى تسلية المحجوزين . وهى أن يتم التعارف بين الوجه الجديد وقدامى سكان الحجز بما يشبه طقوس الزار فى الريف . كان يسميها حرب الكل ضد الكل . وعندما كانت الاصابات توشك ان تؤدى الى الوفاة . يتدخل فى الوقت المناسب . فى داخل الحجز . كان لهم حكمدار ونائبه وكل المناصب مثلما يحدث فى الخارج . والأقدمية المطلقة تحسب بالدقائق والثوانى . دخل الديش عليهم ، خافوا منه . التناقض ضخم بين خشونة وبدائية شكله الخارجى . وبين هدوئه ومسكنته . لم يفلح التعامل بالكلمات . السؤال الأول الذى وجه له . عن سبب دخوله الحجز . ولأنه لم يعرف لذلك سببا . لم يرد ، غمغم بكلمات غير مفهومة . وفى تلك اللحظات الضيقة يتفاهم البشر بأكثر من وسيلة . اللسان احداها . وقد كان .

الرواية الأخرى تقول . انه كان مطلوبا من الديش أن يقوم بتنظيف استراحة الضباط . ومسح دورة المياه . رفض الديش دون مناقشة . اعتدى العسكرى النوبتجى عليه . الاصابة أدت الى الوفاة .

كل يوم تحدث فى الضهرية . معارك صغيرة وحالات أخذ بالثأر . منذ فترة تقل عن العام حدثت مذبحة فى وضح النهار فى أحد شوارع البلد راح ضحيتها خمسة رجال من أهالى البلد . دبرها شاب متعلم متأثر بأفلام رعاة البقر . ويترحم دائما على صورة جارى كوبر والمسدسين المتدليين على خصره . ويرى أن العنف أفضل وسيلة للتفاهم بين البشر . حدث كل هذا ، ولكن علمهم بوفاة الديش . كان له رد فعل مختلف عن كل المرات السابقة . الغلبان أول من عرف بالوفاة بشكل مؤكد من الرجل الغريب ، أحس بشىء حار يجرى فى عروقه . ارتفع الصهد الى صدره ورأسه غامت الأشياء ، أمام عينيه . جرى كالملسوع ، قابل طفلا وصبية . حكى لهما ماحدث . نظرا اليه ببلاهة . ولم يردا عليه ، على المصاطب وفى الحارات . وأمام أبواب البيوت . حكى الغلبان :

ــ الديش اتقتل .

أطلب الثقة بما سأقوله . علم الناس بوفاة الديش ودفنه فى مكان لايعلمه أحد . أفتى البعض أنه دفن فى مكان ما بمقابر الصدقة المخصصة لأبناء السبيل واليتامى والمقطوعين من شجرة . ضرب بعضهم كفا بكف . قيلت الكلمات التقليدية لاحول ولا قوة الا بالله . أكثر الواقفين ثورية انتفخت عروق رقبته . وبانت العقد الزرقاء فيها وهو يقول :

ــ الله ينتقم من الظالمين .

أكمل آخر :

ــ لهم يوم . واليوم قريب .

باقى التعليقات دار حول معنى أن ماحدث كان من نصيب الديش ، وقال إمام المسجد أنه مسجل فى اللوح المسطور . وان المكتوب على الجبين لابد وان تراه العين . أدركوا ختام الموقف عندما قال رجل تلقى تعليما دينيا فى شبابه :

ــ إنه القضاء والقدر .

نظر نحو السماء :

ـــ مشيئة الله فى علاه .

وتاهت العقول فى تشابك المعانى القائمة وراء عوالم الكلمات .

خليك فى حالك يزيد رسمالك

لكل زمن بطولته . وبطولة أيامنا تتحدد من خلال قدرة الانسان على الصبر والمكابدة . وليس العناد والرفض والجسارة . المثل القديم يقول . إن من لم يلعب الكرة الدح لن يتمكن من كسر رجل عدوه ابدا ، ليس معنى هذا أن زمننا أصبح بلا رجال . بالعكس . قاموس الفقراء الآن فيه الكثير من المفردات الجديدة .

وعندما تساءل الغلبان :

ـــ وإيه العمل دلوقتى ؟

رد عليه عامل زراعى زميله :

ـــ ميت ضعيف يساووا قوى واحد واحنا كتار خالص .

قال آخر ، إن الضعيف يظل الى الأبد كما هو ، أمله الوحيد هو أن يوقع بين الأقوياء لكى ينجو بنفسه . رد عليه الأول ، ان هذا غير صحيح وانه على الضعفاء أن يتحدوا فقط ، ولأن أغلب الذين قابلتهم فى هذه الرواية بلا أسماء . فسنكمل معا خلق الصفحات القليلة الباقية على هذا الأساس ، اكتملت فروع الحكاية أمام الناس . وأصبح الأمر معروفا . تحرك البعض ولا أقول الكل . قالوا اننا

لابد وأن نفعل شيئا ما ، ماحدث للدبيش معرض لأن يحدث لأى منا . جلسوا وكان السؤال المعلق فوق رؤوسهم : ماذا نفعل ؟

ذهبوا الى مكتب رعاية عمال التراحيل وحماية حقوق عمال المياومة . الذين يعملون باليومية ويسمون العمال الزراعيين . قابلوا رئيس المكتب . وهو يعمل موظفا بمجلس القرية . أسعده الحظ وفاز بمنصب أمين الاتحاد الاشتراكى العربى . ولأنه يشرف على المكتب بعمل اضافى ويقال فى البلد انه عمل تطوعى . للخدمة العامة . ومدون فى الدفاتر الحكومية . أنه عمل فى غير أوقات العمل الرسمية . لذا تصرف له مكافأة ضخمة . ذهبوا اليه . صافحهم وابتسم لهم .

قال أحدهم :

— جايين بخصوص حكاية الدبيش .

أشار للأوراق والدفاتر والدوسيهات المكدسة أمامه فوق المكتب . قال أن أمامه أعمالا لايمكن ان تؤجل . مطلوبة لجهات عليا . تلطف معهم . وحدد لهم موعدا فى منزله . بعد صلاة العشاء .

تكلموا . قال واحد منهم : انهم ان سكتوا على ماحدث للدبيش فالدور عليهم . أكمل آخر : انه كان يتصور أن نَفَسَهُم طويل وموتهم صعب . قتل الدبيش جعله لا يأمن على حياته . انتفض سيادة الأمين . عند سماعه لهذه الكلمات ، طلب من العامل سحبها فورا . لم يفهم العامل معنى سحب الكلمة . نظر له . قال الأمين ان الكلام مدسوس على لسان العامل ومعناه الوحيد عدم وجود امن فى البلد . وهذا غير صحيح . الكل أحرار وآمنون فى مصر الآن . وحياته مضمونة بألف ضمان وأنه هو وغيره من المسئولين فى الضهرية . لاعمل لهم سوى رعايته والاهتمام به والسهر على راحته ووقايته من أى سوء وشر . فهو مواطن وحق المواطنة يلقى على الدولة تبعات كثيرة . منها حمايته حتى من القلق اليومى .

— أما موضوع الدبيش .

انتبه له الكل . وصل الى الموضوع الأساسى . توقف قليلا واشرأبت نحوه العيون . والأذان والقلوب . قال بهدوء :

— فيه صعوبة قانونية .

أكمل الأمين حديثه ، العقول تحاول أن تفهم . قال انه رئيس لجمعية رعاية عمال التراحيل . ومشرف على مكتب حماية العمال الزراعيين . الجمعية والمكتب لكل منهما لائحة تلزمه بنظام معين للعمل . نحن نمر بمرحلة احترام اللوائح والقوانين والدساتير والأنظمة المكتوبة . وتلك مسألة لايختلف فيها مصريان شريفان أول بنود اللائحة يقول : ان الجمعية وجدت لرعاية وحماية والدفاع عن حقوق عمال التراحيل والعمال الزراعيين . البند الثانى يعرف عامل التراحيل والعامل الزراعى . الذى وجدت هذه الجمعية لرعايته وخدمته . وهو ان يكون عضوا عاملا فى الجمعية مسددا الاشتراكات حتى آخر لحظة . ولعضوية الجمعية شرط أساسى ان يكون من الأعضاء العاملين فى الاتحاد الاشتراكى العربى . لا أستطيع أن أدافع الا عن المسجل عندى . والذى لايعمل الا عن طريقى . وأحصل على عمولات المكتب من أجره . الدبيش عرايس أولا ليس عضوا فى الاتحاد الاشتراكى العربى (أقسم لهم الأمين انه قضى ليلة الأمس وأمس الأول وهو يراجع الكشوف والدفاتر . ولكنه لم يجد حرفا واحدا يشير الى عضوية الدبيش ولو حتى بالانتساب) كما أن الدبيش ليس عضوا فى جمعية رعاية عمال التراحيل . ولا يعمل فى الحقول من خلال مكتب حماية العمال الزراعيين . وذكرهم الأمين بمحاولاته السابقة مع الدبيش لكى ينضم الى الجمعية . ورفضه بل وسخريته من الأجهزة التابعة للحكومة والتنظيم السياسى . إعترض أحد العمال . قال ان صفة الدبيش كعامل . تأتى من كونه يعمل يوميا فى حقول الآخرين . وأنه كل صباح يحمل فأسه على كتفه وغذاءه الجاف فى منديله المحلاوى المخطط . ذاهبا الى حقول الآخرين لكى يعمل فيها . وليست عضوية الجمعية هى الدليل . غضب الأمين .

قال ان هذه مسائل قانونية لايفهم فيها سواه . لقد ترقى فى العمل السياسى . ورضع السياسة مع لبن أمه . لايمكن عمل شىء من أجل الدبيش لا بصفته أمينا للاتحاد الاشتراكى ولا كابن بار من أبناء البلد . بل واحد من الفلاحين فيه يسكن فى بيت ريفى متواضع . رافضا الاقامة فى فيللا الوحدة . رغم أنه من إحدى العائلات العريقة فى المنطقة كلها . لو كان يستطيع عمل اللازم من خلال منصبه فى مجلس القرية . لعمل المطلوب فورا . خاصة وأن وظيفته لها مهابة ومكانة وكلمة مسموعة . تأتى آخر صفاته . كمشرف على مكتب حماية حقوق العمال الزراعيين . كان يتمنى أن يفعل الكثير . ولكن ما باليد حيلة .

شعروا أن الموضوع انتهى :

— يعنى ضاع دمه هدر..

سأل الأمين بغضب :

— دم مين يا اخواننا ؟

طلب منهم الجلوس . بدأ كلامه من جديد . الدبيش حتى الآن فى التكييف القانونى . إما هارب من السجن . وفى هذه الحالة قبل الحديث عن مشكلته لابد من العثور عليه وتسليمه للدولة أولا . وهذا عمل وطنى شريف فى المقام الأول . كيف تحل مشكلة هارب من العدالة . وان كان قد قتل كما تقول العناصر إياها . فما هو الدليل ؟ لكل جريمة جسم هو الدليل الأول فيها . جسم الجريمة هنا جثة الدبيش أين هى ؟ أحضروها لى وأنا أقلب الدنيا . شوفوا حا أعمل إيه ؟

على باب الحجرة التى كانوا يجلسون فيها . ضغط الأمين على زر يشع ضوءا فسفوريا أخضر فى الظلام . أضاء نور الصالة والمدخل والحارة أمام البيت . داست أقدامهم على أرض نظيفة ولأنهم حفاة شعروا بسرعة برطوبة محببة الى النفس تشع من بلاط الأرضية . لمعت الحيطان المدهونة بالزيت تحت الضوء الجديد . وهو يودعهم قال لهم بصوت مرتفع سمعه سابع جار . ان حكاية الدبيش لابد وأن

تكون انذارا لكل منهم . الانضمام الى التنظيم السياسى والجمعيات الأهلية هو انتماء لتنظيمات وجدت أساسا لحماية الوطنيين المخلصين لوطنهم من أى شىء يحدث ، لو كان الدبيش عضوا فى أى تنظيم لحدثت معجزات من أجل العثور عليه وهو حى يرزق . سلموا عليه . ساروا فى طريقهم . نادى عليهم . رجعوا . قطع هو نصف المسافة اليهم . اقترب منهم سألهم فى الظلام :

ـــ ثم انتو مالكو بالحكاية دى ؟

صاح الغلبان :

ـــ بتقول إيه ؟

حاول الأمين تهدئة الموقف . رفع يده فى منتصف المسافة بينهما :

ـــ قصدى ان الحكومة هى المسئولة عن كل الأمور دى . يا جماعة ليه تتعبوا نفسكو أجدادنا قالوا لنا : خليك فى حالك يزيد رسمالك . حكاية الدبيش دى مافيش وراها الا وجع الدماغ . سيبوا الحكومة تتصرف فى الموضوع . كل واحد فيكو يهتم بنفسه وبحياته وشغله أولا . الدبيش له رب يرحمه .

ـــ وأولاده ؟

ـــ إحنا متكفلين بيهم . بكره حا أكلم رئيس مجلس القرية والاخصائى الاجتماعى . علشان يديهم ضمان اجتماعى . أنا ما أقدرش أصرف لهم مليم واحد ، دى تبقى مخالفة صريحة للائحة المالية الخاصة بالمكتب . لأنه لم يكن عضوا ومع هذا لن أتخلى عنهم أبدا .

يعنى قصر الكلام سيبولى الموضوع كله ..

آخر تفاصيل البحث عمن يقطع العرق ويسيل الدم

خرج العمال من منزل أمين الاتحاد الاشتراكى وهم حيارى . انطفأ الحماس فى وجوههم المشققة من التعب . أعلن البعض انه يريد الذهاب الى بيته وينام نوما عميقا يستيقظ منه لكى يفكر فى ترك البلد كلها . رفض الغلبان هذا . قال ان الضهرية لن تعرف العقم أبدا ، بها رجالات مثل عيدان السرو وقت الربيع ، ذهبوا الى المتعلمين من أهل البلد وأعضاء الوحدة الأساسية والعمدة . اثناء سيرهم فى شوارع البلد ذهابا وايابا للبحث فى حكاية الدبيش مروا على صاحب الحقل الذى كان يعمل فيه الدبيش يوم الحادث . بعد مرورهم عليه . دهشوا من ضحكة ساخرة ومجلجلة . انطلقت من الرجل الذى بدأ حديثا طويلا لم يسمعه أحد منهم ، عنهم .

الذين قابلوهم اختلفت اجاباتهم . طلب منهم البعض أن يقدموا الدليل على أن الدبيش قتل . ودفن فى مكان ما كما يدعون . فى الوحدة الأساسية عضو من العمال يقول انه وهب نفسه لخدمة أبناء طبقته . انقطعت أنفاسهم وهم يبحثون عنه فى كل بيوت البلد . أخيرا عثروا عليه وضعوا حكايتهم بين يديه . وانتظروا الإجابة :

— الموضوع — قال لهم — صعب جدا ..

هناك تعقيد وتشابك فى الحكاية . النقطة تقول ان الدبيش لم يوجد أساسا . وثائق الدولة الرسمية تؤكد هذا . لقد وجدوا من يشهد بأن الدبيش لم يوجد لدرجة أن بدأ البعض يصدق الكذبة . يجب أن نبحث الآن عن العيون التى رأته والقلوب التى خفقت بحبه والصدور التى امتلأت بالعواطف نحوه . والمرأة التى عاشرته والأولاد الذين أنجبهم وترك فيهم الكثير منه . ألا يكفى كل هذا للتدليل على وجوده ؟

أكمل العضو :

— هناك اتجاه ثانٍ . أن حكاية الدبيش مندسة علينا من المدينة . لتفسد نقاء وطهر الريف المصرى يعنى الحكاية مؤامرة من المدينة على القرية . نفس الرأى يؤكد أن الدبيش موجود . يعيش فى القرى . يزور بيته ليلا . ويستعد لعمل تخريبى ضخم . وهو ينتظر حتى تصفر الغلة فى الغيطان ويشعل فيها الحرائق . ويقطع جسر الترعة أيام المناوبة ويغرق الغيطان . للوقوف أمام هذه الشائعات المغرضة مطلوب أمرين : إما القبض على الدبيش حيا أو العثور على جثته بأى وسيلة . لكى تستريح كل الأطراف . وحتى بعد العثور على الجثة ستكون هناك مشكلة التعرف عليها من الناحية القانونية .

— هو مالوش صورة ؟

— كان السؤال مضحكا ومحزنا فى وقت واحد . التصوير لايقدر عليه غير أغنياء البلد . المعدمون من أمثال الدبيش يجلسون أمام الصندوق المسنود على حديد سور المركز وخلفهم شاشة سوداء مقبضة . مرة واحدة فى العمر . عندما يذهبون لاستخراج البطاقة الشخصية أو العائلية .

تساءل أحدهم :

— صورة إيه ؟

رد العضو :

— قصدى صورة مناسبات . حفل زواج . عيد ميلاد .

ضحكاتهم الموشاة بمرارة غريبة . أوقفت العامل الذى توجد بيديه آثار استعمال الفأس فى الزمان القديم . ولكنه منذ تعاطى السياسة وهو بعيد عن الأعمال الجسمانية . أكدوا له عدم وجود صورة للدبيش . قال ان اليأس لن يعرف طريقه اليه . يجب اثبات أن شخصا يحمل اسم الدبيش عرايس قد وجد فى عالمنا . وتلك حكاية يطول شرحها ، إنها رحلة متعبة فى السجلات والدفاتر والأوراق . قد نجد الاسم فى أى واقعة وبعد اثبات الوجود . نجابه مشاكل الهروب والبحث عنه .

— مش قلت لكم الحكاية صعبة . احنا كلنا ولاد عرق واحد .

— والحل ؟

— دا أصعب ما فى المسألة .

— وأولاده ؟

رفع يديه نحو السماء المنقطة بنجوم لحظة الغروب . بان لمعان الساعة واضحا فى الظلام والخواتم الذهبية فى أصابعه لها بريق أثر على أعينهم .

قال :

— لهم رب اسمه الكريم .

ذهبوا الى العمدة . قبل ان يكمل الغلبان حديثه . قال له العمدة وهو يهب واقفا وقد ضاق بالموضوع كله :

— إكتب لى شكوى وأنا أحقق فيها بشكل رسمى .

سأل الغلبان :

— ضد مين الشكوى ؟

— منش مشكلة . ضد أى واحد حاأوليها اهتمامى وهيه مشكلتكم إيه ؟

قالوا فى صوت واحد :

— المشكلة ان فيه كبير عدى على بلدنا .

— كبير خالص .

— المفروض ان الكبير يعدى على البلاد يتصلح حالها المعوج .

— الكبير عدى والحال أصعب من الأول .

— الكبير زى البحر . عنده الخير دايما . معاه المية والطمى . يدى الحياة لكل اللى يعدى عليه .

— ولما تكون الأرض شراق يقدر يغرقها . فيه المية والتراب والجيف الميتة . من جديد قيلت الحكاية أمام معاون النقطة . وضع خده على كفه وأغمض عينيه مد قدميه على كرسى آخر . طلب منهم الاطمئنان . مصر تعيش العصر الذهبى للحرية والاطمئنان .

سأل الضابط الغلبان :

— إنت بتعرف تقرا ؟

— لا يابيه يا دوبك باكتب اسمى .

— يا خسارة

— ليه يا بيه ؟

كنت تنفع مؤلف . الحدوته اللى قلتوها دى ما حصلتش خالص . هل كان فيه حد اسمه الديبش ؟

تساءل الغلبان :

— يابيه حضرتك كنت فى البلد بتحقق فى حكاية الديبش .

قال الضابط :

— كنت فى البلد دا صحيح . إنما مين يعرف كنت بأعمل إيه ؟ لو كل واحد عرف الأسرار العليا فى الدولة . كانت المسألة كلها باظت .

وجه حديثه لهم جميعا بعد فترة صمت :

— دلوقتى تروحوا البلد . واللى عاوز يتكلم على حاجة اسمها الديبش . عليه يثبت أولا انه كان فيه بنى آدم بالاسم ده فى يوم من الأيام .

عندما تحول الدبيش الى مشروع استثمارى

اقتربنا من آخر الرواية ، وهكذا نصل الى كلمة النهاية . التى لم تكن سعيدة أبدا .

ولكن ماذا بعد ؟ هناك حكاية لم تنته بعد . تمت الفصول قبل الأخيرة على النحو التالى : فى الأيام الأخيرة للبحث والتقصى كان السؤال المكتوم هو : من قتل الدبيش ؟ طرحه أهالى الضهرية . اكتفوا بطرحه . وفر كل منهم على نفسه عناء البحث عن اجابة له . اختفى الدبيش . قالوا أين ذهب ؟ أتى الرجل الغريب ومعه الخبر . أطلق السؤال : من قاتله ؟ الطبيب ؟ الضابط ؟ رئيس مجلس القرية ؟ باعه الشهود برخص التراب . ثمنه وعود لن تنفذ أبدا . الحلم الأمريكى القادم عبر الأطلنطى . الفردوس الذى سيمر بالقرب من بلدهم راكبا وابور شحم . الرئيس الأمريكى . الضيف الذى مر بالتوفيقية هو الانسان الوحيد فى عالمنا القادر على حل مشكلة الشرق الأوسط . لن تذوق مصر لمدة قرن قادم طعم الحرب أبدا ، قد لاتفكر فى وجود جيش من الأساس . القاهرة ستتحول إلى مدينة من البلوبيف والاسكندرية تلال من الدقيق الفاخر . وبورسعيد أكوام من التليفزيونات والسيارات وأجهزة التسجيل والثلاجات والغسالات والسخانات

والاسماعيلية ستظل مزدحمة بسيارات اليو ان . وفى منتصفها غابة من الأسلاك وآلات الرادار . وعساكر البدل الخضراء يتسكعون فى حى الإفرنج وقت الأصيل . وأحياء الملوك العرب تملأ السويس والاسماعيلية وبورسعيد . العروق خالية من الدم . والبطون الضامرة صدقت ، اليوم يبحث الكل عمن يقدم له الشكوى . ذهبوا الى عرضحالجى ريفى رقيق الحال . وضعوا على الطبلية أمامه خمس شلنات ينطح كل منها الآخر . لم يصدق نفسه .

— طلبكم يابلديات ؟

دهش :

— شكوى جماعية .

— ضد مين ؟

احتاروا . اندفعت الكلمات كثيفة متداخلة مشبعة بالدخان والرذاذ الخارج من أفواههم لم يستطع العرضحالجى الريفى أن يفهم الكلمات .

الدفاع كان حارا .

الديش لم يوجد أساسا . نكتة جديدة . لكنها ستعجز عن لصق ابتسامة مصطنعة على شفاهنا الجافة . فى أيام القحط التى نعيشها . انه بدون شهادة ميلاد . وهل كانت أم الديش بائعة الترمس فى ماكينة الطحين تملك أن ترشو التومرجى وخفير دوار العمدة وكاتب نقطة التليفون وان تتفرغ أياما لكى تذهب الى إيتاى البارود ودمنهور حتى تستخرج له شهادة ميلاد ؟ ولأنه تزوج صدفة وهى فى العاشرة من عمرها ، تم عقد القران شفهيا لم يسجله المأذون فى دفاتره الحكومية . اكتفى بالشهود . ومن يستطيع أن يكتشف ذلك ؟ عندما أتى الأولاد الثلاثة الى الدنيا لم يسجلهم . فهو لايمتلك بطاقة تموين وتسجيلهم لن يعود عليه بسكر أو شاى أو زيت . الديش لم يجند . لأنه لم يستخرج بطاقة شخصية . ذهب لاستخراجها إكتشف أنه مطلوب منه أولا أن يثبت وجوده . الاجراءات

كانت معقدة ومتشابكة ولم يستطع فهمها . بعد أن تكرر ذهابه الى المركز لم يجد مايدل على وجوده فى الدفاتر والأوراق . اعتبرها نكتة . قال ان قليل البخت يتوه اسمه من عند الحكومة . لم يطلب للجهادية ، اعتبر ذلك سوء حظ ، التجنيد كان فرصة لأن يفك من الضهرية . فى البلد طلبوا منه السفر الى مصر . فى مكتب شبان التجنيد يقدم مايثبت شخصيته . لم يكن معه سوى ختم يحمله فى جيب الصديرى الداخلى . وكل البيانات التى تقال عنه افتراضية وليست دقيقة .

نأتى الى موضوع المعونة . لابد وأن نسأل : لماذا ضبط الديش وحده ؟ بيوت الأغنياء دخلها أكثر من معونة . البعض وصل الى عشر معونات . طبعا لم يضبط أحد . الذى وشى بالديش كان ذاهبا للحصول على المعونة رقم سبعة . قال ساعتها انه قنوع لن يأخذ اكثر من هذا رغم انه يملك ان يأخذ مايريده . لسبب بسيط . وهو انه يتفاءل بالرقم سبعة . يقولون انه ضبطت فى بيت الديش أسلحة . مسدسات وخناجر وسكاكين والكل يعلم . انها لو وجدت عنده لاستعملها فى ذبحهم . ولباعها ليأكل هو وأولاده بثمنها . وكيف قبض عليه ؟ يقولون ان البلد يحكمها قانون واضح وصريح . لايملك أحد ولا حتى ضابط البوليس إلقاء القبض على احد . من الممكن ان يودعه لبضع ساعات فى حجرة التليفون كنوع من التهويش والتهديد . القبض على مواطن يتطلب أمرا كتابيا من النيابة . فى الضهرية قالوا للناس ان الديش عرايس أرسل الى النقطة فقط . لايتوقف الفلاحون طويلا أمام مسميات الأشياء . لم يدرك أحد أن إرسال الديش يعنى القبض عليه . وفى النقطة لم يفهم هو ان وضعه فى الحجز ولو دقيقة واحدة بمثابة سجنه . من يدرك حكاية النيابة وتصريحها . الضهرية تخاف من عسكرى البوليس الذى يدخلها راكبا حصان الحكومة الرمادى . فما بالك بمعاون النقطة شخصيا .

سمعوا صوتا غريبا . حول المسألة فى اتجاه لم يخطر على بال أحد . الكل يعرفه بالاسم والشكل والكلام الذى قاله فى ذلك اليوم . جعلهم ينظرون اليه . وكأنهم يرونه للمرة الأولى فى حياتهم :

ـــ نرفع قضية فى المحاكم

هزوا رءوسهم بالموافقة . سمعوا من شاب يطلب العلم فى الاسكندرية . كلاما عن سيادة القانون ودولة المؤسسات . وعصر تذويب المعدمين وتحويلهم الى طرق ممهدة ونسمات رطبة ومناظر تسلى أغنياء الزمان القديم الذين ظهروا من جديد . أكد على أهمية اللجوء الى ساحة القضاء . أبدى الغلبان حماسته . قال الشاب :

ـــ بس الحكاية عايزة فلوس .

تساءل الغلبان :

ـــ وماله .

ـــ حوالى خمسين جنيه الأول . دمغات وورق وعرايين .

تصور الغلبان أن الشاب المتعلم يقول احدى النكات . عندما وافق فى البداية تصور أن المبلغ سيكون قروشا قليلة . نفقات الذهاب الى إيتاى البارود والعودة .

ـــ خمسين جنيه .

ـــ بعد كده نحتاج مية .

ـــ انت بتتكلم ازاى . الدبيش عياله مش لاقية تاكل . بيته مافهوش تعريفه واحدة كلنا على الحديدة . آدى البير وآدى غطاه .

خبط الشاب المتعلم كفا بكف :

ـــ غباء وقصر نظر وجهل .. أيهما أكثر أهمية . تكوين خط دفاع ضد الظالمين ويموت عيال الدبيش من الجوع . أو يشبعوا من الأكل ويبقى الدور على ولاد الغلبان ؟ أكد أنه يدرس القانون . يعد نفسه ليكون وكيلا للنيابة . وان لم يسعده الحظ سيقف فى الناحية الأخرى . سينضم الى القضاء الواقف . محاميا للدفاع عن المظلومين .

ـــ إنما المسألة مربحة ماليا ويجب انتهاز الفرصة .

ـــ مسألة إيه ؟

ـــ الدبيش .

شرح الشاب المتعلم فكرته . من حق زوجة الدبيش وأولاده أن يرفعوا قضية يطالبون فيها بتعويض مالى لايقل عن العشرة آلاف جنيه من السهل الادعاء انه كانت معه مبالغ مالية لحظة القبض عليه . يوم الحكومة بسنة وحبال المحاكم بدون نهاية . ولكن من المؤكد أن زوجته ستحصل ذات يوم على عشرة آلاف جنيه .

ـــ والقضية ضد مين ؟

ـــ ضد الرئيس ريتشارد نيكسون شخصيا . هو المتسبب فى الحكاية من طقطق لسلامو عليكو . تصور عندما ترفع قضية ضد أغنى رجل فى العالم . ورئيس أقوى دولة فى الوجود كله . العشرة آلاف جنيه بالنسبة له ملاليم . فى أمريكا يعدوا الفلوس بالمليون أقل من المليون مالوش قيمة . ثم خلال القضية حايكون هناك اهتمام عالمى بحكاية صدفة وعيالها . الصحافة والاذاعة والتليفزيون . ويمكن تتعمل حكايتها فيلم سينمائى كمان . وكل ده بفلوس راجعة ليها .

ـــ ونيكسون دخله إيه ؟

ـــ زيارته لمصر هيه السبب . ويمكن تكون سبب حاجات تانية أخطر . الزيارة تسببت فى المعونة . والمعونة ترتب عليها الاجتماعات وقواعد الصرف . التى ادت الى الخناقات بين الدكتور والدبيش . وباقى الحكاية معروفة . نيكسون فاعل أصلى . وكل الباقين شركاء فى الجريمة . ولذا ترفع القضية ضده .

قال الغلبان :

ـــ والقضية تترفع فين ؟

ـــ فى إيتاى البارود .

— ونقعد قد إيه ؟

— حاتطول شوية . يمكن أكثر من سنة .

— ياعم إحيينى النهاردة . وموتنى بكره .

— هوه ده العيب .

قال الشاب المتعلم أنه منهم . وهو يعرف أنهم فقراء لايملكون طعام يومهم . هذا ليس معناه السكوت لقد منحهم الله العقول لكى يستخدموها . ما المانع أن يتقدم رجل غنى يمول المشروع .

— المشروع ؟

بمعنى أن ينفق على العملية كلها . ويصرف على الدبيش وأولاده . ويكون له ثلاثة أرباع المبلغ المنصرف . العملية مضمونة مائة فى المائة .

— قتلوا إيه ؟

— بس مين يقدر يكلم صدفة .

— وإيه المانع ؟

— دا جوزها .

ضحك ساخرا منهم . أشار بأصبعه واحد زائد واحد يساوى اثنين . مات الدبيش أو قتل أو هرب . كل هذا لاقيمة له . المهم انه غير موجود . الحزن عليه مسألة مضحكة ، صدفة تواجه الآن موقفا صعبا . يجب أن تفكر كيف تستفيد من الموقف الجديد . البكاء على الدبيش لن يوفر الغذاء . أما تمويل المشروع والسير فيه . فهو يضمن لهم مستقبلا سعيدا ، نحن فى زمن ربه القرش . والصلاة فيه من أجل استدارة رغيف العيش . بالمال نشترى حتى العواطف فى الصدور . بمجرد أن يكون مع صدفة مائة جنيه ستجد مائة رجل يجرون وراءها أقل واحد فيهم سيكون قادرا على أن ينسيها الدبيش . قال الشاب انه يسافر كل صيف الى

أمريكا . ومنها اكتسب نظرة واقعية للأمور . وهو مستعد للبحث عن ممول للمشروع . وان لم يجد فردا واحدا . يتكفل به . سيقوم بعمل اكتتاب عام . تبدأ أسعار الأسهم فيه من الخمسة قروش . حتى يساهم الكل . يشكل مجلس ادارة الجمعية تسمى : المؤسسة المصرية العامة لاحياء ذكرى الشهيد الدبيش عرايس وشركاتها .. يتولى مجلس الادارة استغلال واستثمار المشروع . مع الاشراف على تشغيل العائد بدلا من انفاقه .

— بالعشرة آلاف جنيه دول . تحول الضهرية الى قرية سياحية .

— فكرة مدهشة .

— ونستفيد من عصر الانفتاح الاقتصادى ونلاق مستثمر أمريكى يدخل بـ ٤٩٪ من رأسمال المشروع .

وفيه آلاف الأفكار ، الضهرية كنز . ممكن مصنع معلبات . بحث عن البترول فى أرضها . واخراج مياه معدنية من باطن الأرض . مصنع سجاد تشترك فيه ايران ونصدره الى اوروبا . أو عمل عشش أو شاليهات على شط النيل للسياح . لقضاء وقت ممتع بجوار نهر النيل العظيم .

انقضى وقت طويل والشاب يتحدث عن طرق استغلال الدبيش عرايس .

أكثر الواقفين قالوا تعليقا على الحكاية كلها :

— الأول تعرف الدبيش مسجون واللا هارب والا مقتول .

تركهم الغلبان وهم يبنون قصور الأحلام والأمانى من دم الدبيش الذى لايعرف أحد فى الضهرية مكانه الآن .

على باب بيته . سأل الغلبان نفسه .

— هيه البلد جرى لها إيه ؟

فصل فى ذكر أحوال أسرة الدبيش من بعده

لا أستطيع أن أبدأ سوى باللحظة التى علمت فيها صدفة بمقتل الدبيش . رغم أنى لا أعرف كيف أصفها . الموقف دقيق وصعب . ولكن كم رواية سبق لها أن وضفته من قبل ؟ أشعر أنه استهلك لدرجة انه لن يحرك بداخلك أى شيء يتساوى مع جلال الموقف . هل أقول انها بكت ، شقت ملابسها التى لاتمتلك سواها . أم أن المفاجأة جمدت حتى الدمع فى المآق التى هرب منها الدم . تغير كل مافى الحياة ، الآلات الدقيقة أصبحت ترصد حتى دقات القلوب . أى مبرر اذن لسرد ماحدث أو إعادة خلق آلام صدفة الرهيبة . العلم يشرح كل شيء بدقة خارقة . رغم هذا سأحكى وأقول ، مازالت أعماق الانسان تطمح وتشتاق للاتصال بأعماق انسان آخر . لهذا ستظل كلمة « يتقلص القلب من الأسى » صالحة للقول بعد موقف انسانى مثل موقف صدفة .

يوم أن ذهب الدبيش إلى النقطة . كان عليها ان ترد على الأسئلة الساذجة لأطفالها الثلاثة عن أبيهم . لم يكن الدبيش يدخل عليهم كل مساء . وجيوبه منتفخة بما لذ وطاب . ولم يحملهم على كتفيه ساعة الغروب . أو فى الليل . ويخرج بهم الى الشارع لكى يشترى لهم الحلاوة الطحينية من البقال . أو عيدان القصب . ولكنهم سألوا عنه . قالت انه سيبيت الليلة فى الحقل يروى أراضى

الناس ، فى الصباح لم يعد . تكررت الأسئلة ومحاولات الكذب ، وزارهم الجوع ضيفا غريبا ثقيلا .

عندما دخل الغلبان . كان الوقت مساء . وقف على عتبة الباب . أعطاها ظهره .

قالها لها :

ـــ البقية فى حياتك يا أم عرايس .

وقفت ، اقتربت منه . رفع يدها . شكشك الدمع جفونها ومسحت عينيها فى كم جلبابها ، قالت كلمة لايعتقد الغلبان انه بقادر على نسيانها . مهما حدث له فى الدنيا ، سمعتها من أمها فى الزمان القديم . قالت : ان كم جلبابها أصبح فى شكل الجلد من كثرة ما مسحت به دموع العين . ولكن دموع القلب من يمسحها ؟ وتحولت عيناها فى ليل بيتها المظلم الى كاسات من الدم .

أتى الليل سريعا . بدت تحاول معرفة رحلة الليل والنهار . حاولت الرجوع الى الدورة الأبدية . تذكرت الطفولة البعيدة . أدركت أن الظلام يعنى الليل وقطرات الضوء تعنى النهار . وفراغ المعدة يتطلب إعداد الطعام الذى لم يعد له وجود . النهار يفطر على بقايا الليل . والليل يتعشى بالنهار .

لن أتحدث عن تفاصيل العلاقة بين صدفة والدبيش . لن أصف التنزه داخل حدود الغرف الضيقة . مع رجل لم تحب سواه . ضاع الدبيش وتلك أهم الحقائق . وأى تفاصيل أخرى تعد زيادة لامبرر لها . للأرملة فى القرى رائحة خاصة . الهدوء والصمت فى حياتها . لهما أكثر من معنى . ولكن حكاية الدبيش لم تعط لأحد الفرصة حتى يفكر فى هذا . كانت صدفة تتساءل : من سيملأ رحابة الفراغ فى حجرتها . فى الليالى المطعونة بمساحات الظلام المخيفة . نادت ابنها الأكبر بإسم أبيه :

ـــ دا الدبيش الصغير . والمرحوم الدبيش الكبير .

سمعت الحكاية كلها من الغلبان . لم تفكر فى اقامة ليلة مأتم . لسبب بسيط أنها لم تكن تملك ما تعطيه لأحد . قيل لها . انها حتى لو كانت تملك . اقامة مأتم يعد تحديا للحكومة . التى تؤكد أن الدبيش هارب من السجن ولم يمت . وأنه حى وأنها بذلك تفتح على نفسها بابا لايعرف أحد كيف يغلقه . قال الغلبان . لابد وان تقام للدبيش ليلة مأتم . يشترك كل زملائه فى دفع نفقاتها . ويتلقون هم العزاء فيه . ولكنه مقتول ولن تقام الليلة الا بعد الأخذ بثأره .

أعتقد أنه مطلوب منى الآن القاء نظرة على أحوال أسرة الدبيش بعد التأكد من وفاته . ورغم أن كلمات مثل الدنيا بخير والناس لبعضها ، مازالت تمثل جزءا من الواقع الا أن أهل الضهرية كانوا نوعين . الذين تعبوا من كثرة مايملكون .. وهؤلاء لم يقدموا لصدفة كسرة خبز . والذين يقولون عن أنفسهم ان الحفظة نظيفة ما فيها ولا تعريفة . وهم زملاء الدبيش . فى الأيام الأولى اقتسموا رزقهم واعتذروا لصدفة . كان الاستمرار صعبا . شتموا شح أيامهم وبخل زمانهم واعتذروا لصدفة . ليس الغرض من هذه الكلمات أن نمصمص الشفاه . ونتباكى على ما فى عالمنا من بؤس . ان ذهبنا الى بيت الدبيش لمعرفة كيف يعيش أبناؤه من بعده سيلوى الكثيرون أعناقهم . ويقولون انها ليست الأسرة الوحيدة التى تعانى وعندهم قصص وحكايات ينفطر لها القلب حزنا .

عملت صدفة فى بيوت الآخرين بطعامها . لم تكن تأكله . فضلت أن تعود به فى المساء . لتقتسمه مع أطفالها . الأفواه كثيرة والطعام قليل . يختفى قبل ان تمتلىء البطون . كانت تقدم كل ماتحضره للصغار حتى يرحمونها من البكاء ، فى الليل علمت نفسها التعود على الجوع . تذكرت ربط البطن والنوم المبكر خوفا من قرصة الجوع ، فكرت فى التسول . فزعت عندما أطلت عليها صورة الدبيش ، هدأت ، الضهرية بلد بلا متسولين . وهذا ليس معناه أن كل من فيها يجد ما يأكله وإنما معناه أنه ما من متسول دخلها وخرج منها ومعه كسرة خبز بحجم اليد .

أرسل لها الأخصائى الاجتماعى . ذهبت اليه . وفى مكتبه بالوحدة المجمعة قابلها . سلم عليها . رجاها الجلوس على مقعد مريح . أحست بالخوف والدهشة معا . كادت تجرى . هدأها . قال لها . ان رئيس مجلس القرية انسان رحيم هو الآن فى اجازة يقضيها فى الاسكندرية . الا أنه تذكر حالتها . أرسل مذكرة من هناك طلب منه أن يصرف لها ضمان اجتماعى من المركز . المسألة مالية وهى تحتاج لبعض الأوراق . التى يجب عليها احضارها بسرعة .

ــ أوراق ايه ؟

ــ شوفى ياستى .

قال لها الأخصائى الاجتماعى . مطلوب منها شهادة تفيد أنها أصبحت أرملة طافت بشفتيها ابتسامة باهتة لامعنى لها . توقف الرجل أمام الابتسامة التى لم تكن مضيئة ، تراجع عن طلبه . حاولت ان تتكلم عندما سمعت منه كلمة الأرملة أسكتها . واصل كلامه ، قال انه يطلب شهادة فقر .

ــ فقر ؟

ــ شهادة بسيطة من أى جهة تفيد أنك ليس لك دخل آخر . هاتيها من الاتحاد الاشتراكى أو شيخ البلد أو العمدة أو اثنين موظفين فى أى مصلحة يكون فيها خاتم شعار الجمهورية الدائرى . مع شهادة الفقر . شهادات ميلاد الأولاد الثلاثة وبطاقتك العائلية بدلا من الشخصية . وإجراءات بحث اجتماعى . سيقوم الأخصائى بعمله بنفسه متطوعا لوجه الله تعالى لها . إنها بعد تقديم كل هذه الأوراق من المفروض ان تنتظر دورها بالنسبة لطالبى الضمان . فى كشوف الانتظار . والذين يصل عددهم الى الثلاثمائة شخص . الميزانية لاتكفى الا شخصين أو ثلاثة كل عام . وهذا معناه أن تنتظر مائة وخمسين سنة . سيحاول أن يعرض أمرها على مجلس القرية فى اجتماعه القادم . الذى يأمل أن يعقد بعد عودة رئيس مجلس القرية من إجازته المفتوحة . حتى يحصل على قرار صريح

باستثنائها من كشوف الانتظار وان تمت الموافقة . سيحول الأوراق الى مديرية الشئون الاجتماعية بدمنهور . وقد يصله الاعتماد بالصرف من الميزانية الجديدة . فى أول العام القادم بإذن الله . أى بعد ستة أشهر فقط .

ــ وبكده يكون حظك من السما .

أحست أنها تسقط فى بئر عميقة . سألته :

ــ والمعونة كام ؟

ببطء قال لها :

ــ جنيه واحد وقرش صاغ أول كل شهر .

خرجت من مكتبه وهى تحسب الأوراق المطلوبة منها . والتى تحتاج لتجهيزها لمبلغ خيالى . والأشهر التى يجب أن تنتظرها . وبعد الصرف . ماذا يفعل الجنيه لأسرة مكونة من أربعة أفراد ؟ قلبت الأمور فى ذهنها . فكرت ان تذهب إلى منزل أهلها المغلق بالضبة والمفتاح . وماذا سيفعل المنزل ؟ رحلت الأسرة إلى مديرية التحرير . الأب والأم وثلاثة أخوة وأختان . كعمال تراحيل . فضلوا البقاء هناك بريق الكلمات والوعود اقعدهم عن الرغبة فى العودة . الذين يحضرون من عندهم يقولون ان الحال أصعب . غرباء من كل بلاد الدنيا . خلال الفترة الطويلة التى مرت . دفن الأب فى الرمال . وحضر أحد الأخوة ميتا فى صندوق مغلق نزل من السيارة السوداء الى ظلمة القبر دون ان تراه . تزوجت الأختان . وكلما سألت كان الرد :

ــ الحال هناك صعب .

آه لو تذهب . ولكن كيف ؟ شعرت أنها وحيدة احتضنت الدبيش الصغير والولد والبنت . فى الليل يأتيها نباح الكلاب وأصوات الناس . تشعر أن فى الدنيا دفئا إنسانيا ماعدا حجرتها . تصورت ان الأيادى تدفع باب حجرتها عليها . قالت ان الدبيش كثيرا ماحماها . وإن ضل الدبيش ولا كل ظلال العالم .

سأزعجك بسؤال لم استطع العثور على إجابة له :

ما مصير صدفة . التى تزوجت طيفا لاوجود له . عاشرته وحملت منه وأنجبت له . بنتا وولدين . ثم أتت الدفاتر والأوراق والسجلات . لتقول ان ذلك لم يحدث أبدا وأن وجود الدبيش أقرب الى الأحلام منه الى حقيقة الواقع ؟

قلت اننى لم استطع الاجابة على السؤال الحاد المدبب ولا أعتقد أنك قد تستطيع حتى مجرد التفكير فى الاجابة . فهذا قد يعكر عليك صفو الحياة . ولأنك جلست لقراءة روايتى بقصد الامتاع والمؤانسة أو الهروب من احباطات الواقع اليومى . لن أثقل عليك بالكثير من الأسئلة التى أعرف أنها ليست لها أية اجابات فى ذهنك أو فى الحياة . ولنترك صدفة لمصيرها الذى لا يعرفه أحد ما ..

بعض التساؤلات الساذجة والبريئة من المؤلف

أنا عائد الآن من قريتنا الضهرية التى بناها الظاهر بيبرس . فى إحدى جولاته فى بر مصر . ومازال أنين صدفة يطن فى أذنى كبكاء قديم عمره آلاف السنين ، فيه الكثير من التعاسات . ليست مصادفة ان تسمى قريتنا بهذا الاسم . التوفيقية التى تقع فيها النقطة الثابتة . حملت اسم الخديو توفيق . ايتاى البارود . المركز . يقال ان محمود سامى البارودى كان أحد أبنائها . ويقولون أيضا فى التاريخ المروى شفاهة والذى لم يدونه أحد . أن المدينة بنيت مكان مخزن للبارود فى ثورة عرابى .

منطقتنا التى اكتب عنها كل رواياتى . مليئة بجميع تناقضات أيامنا . عاصمة المنطقة اسمها دمنهور . أهل بلدى يقولون . أنه حدث فى مصر القديمة فى القرن العشرين قبل الميلاد وفى الربع الأخير منه . أن طغى أحد الفراعنة . وانتشر السوء فى أيامه . وازداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا . وبعدت المسافة بين الطرفين . أوصل التذمر الناس الى ثورة دموية . كان الدم فيها أنهارا يسبح فيها الثوار . سميت : الدم نهور وحرفت مع الزمان الى دمنهور .

عدت الى القاهرة . قضيت أياما كثيرة لا أدرى ماذا أفعل . اكتشفت أنى لم استطع الكتابة . فقدت الرضاء القديم عن كل ماكتبته من قبل . كان قتل

الدبيش حكم طبقة ضد أخرى ، عقولهم البسيطة فى البلد لم تفهم هذا المعنى . وتحولت الحكاية الى غيبيات . تركت ريف مصر يتأرجح بين تطرفين . استهانة لحد الاستخفاف بكل الفقراء ومبالغة الى حد التهويل لحجم وتأثير الأغنياء . فى حكاية الدبيش لا أستطيع ان اقول انى استمعت الى جميع الآراء المتطرفة بأذن صاغية وصدر مفتوح ولمست الحقيقة فى الوسط وعلى الطريق الواصل بينهم مسألة التزام جانب محدد فيما يحدث لم يعد الاختيار فيها مطروحا . يرفض قلمى أن يكتب كلمات هادئة . محايدة . يرضى عنها الجميع . انه الريف . أرجو أن تحاولوا فهمى . ما من سبيل أمامى الا تحديد مسافة من الأرض أقف فوقها .

قررت الكتابة . أن أخرج على مؤامرة الصمت والاسكات التى تدبر لاخفاء ماحدث وما يحدث . ورغم تسويد مئات الصفحات وتلطيخها بحبر زماننا الكاذب . مازلت أشعر بذنب المشاركة فى الصمت طوال سنوات مضت . نحن الكتاب الذين نحول جثث المعدمين الى سيارات وزجاجات ويسكى لانقول الكثير . والآن بعد ان انتهت روايتى عن الدبيش عرايس . قد يقول المتشائمون . وهل هذا مايحدث فى مصر فقط ؟ واجبى أن أروى كل ما أعرفه . سيقولون : ان المسافة ضخمة بين العنوان والمحتوى . العنوان مثير ولكن الرواية بعيدة عنه . لا أعرف كيف أرد على هؤلاء . القيود كثيرة بعضها كامن فى داخلى . رغم هذا حاولت العثور على خرم إبره اقول من خلاله ما استطعت اخراجه من العالم الذى يرتجف برعشة المغامرة الجديدة فى أعماقى .

لكن تبقى لى مجموعة من التساؤلات الساذجة . أطرحها عليك . العلاقة مفقودة بيننا . وأنا أشك فى وجودك أساسا . ومع هذا أثبتها هنا .. السؤال برىء . ألم يكن أولى بأهل الضهرية رفض المعونة ؟ خاصة وأن بها شهداء من حرب يونيو وأكتوبر . وأن الفلاح ان حدثته عن أمريكا وإسرائيل . يقول لك انه لن يستريح الا بعد أن يشرب من دم الأمريكى والاسرائيلى . فهما سبب ماحدث لمصر . ألقيت هذا السؤال على الخفير النظامى الذى عين رئيسا للقوة المكلفة بحراسة المعونة ليلا :

ــ الجوع كافر .

قالها الخفير على الفور :

ــ دا أحسن من عينهم .

أكمل لنا .

سكان قريتى لهم العذر . من قال أن أمريكا عدوة لنا فى تلك الأيام ؟ ومن الذى جرؤ على رفع الشعار القديم : عد الى بلدك يانيكسون ؟ . الكل رحب به وارتفعت الأكف تصفق والأيادى تلوح والحناجر تهتف . كان من السهل ان أضيف الى ابطال الرواية رجلا تكون كل مهمته ان يرفض المعونة ويحرض الآخرين على الرفض ويقاطع زيارة نيكسون لمصر . ولا يخرج فى استقباله . غير نادم على الأجر الذى كان سيصرف له نظير الهتاف والصياح والتهليل والذى لايقل عن خمسين قرشا بأى حال . سأعثر على ترجمات عامية لكلمات ثوار القاهرة . على اعتبار ان ثورة زماننا بالكلمات والخطب والمقالات وجلسات المنظرين المنعزلين عن الواقع بحضوره وقوانينه الخاصة . ولكن هذا لم يحدث فى قريتى . سألت أكثر من رجل . ألم يفكر لحظة واحدة فى رفض المعونة الأمريكية القادمة لنا من بلاد الأعداء .

فكر قليلا . وقال لى :

ــ إنت أصلك بالك رايق .

ــ أفندى وعازب ولك مرتب أول كل شهر .

ــ اللى بيننا وبين الأمريكان دم . إنما دى نقره . ودى نقره .

الأرملة الحسناء التى استشهد زوجها فى حرب التحرير . والتى أخذوا ابنتها لكى تلف بالعلم الأمريكى وتمسك بباقة ورد . وتقف مرحبة بالرئيس نيكسون .. قابلتها ، حاولت أن أذكرها بزوجها الشهيد . وأن أؤكد لها أن وقفة الطفلة التى

لاتعرف الكثير عن أمور عالمنا . مرحبة بمرسل الفانتوم . والقنابل وأدوات الموت التى قتلت آلاف المصريين . هذه الوقفة البريئة من جانب الطفلة جعلت دم الشهيد يضيع هدرا .

قالت لى :

ـــ دول قالوا لنا ان الرجل ده هو الوحيد اللى حا يمنع حرب خامسة . ماصدقتش ، قال لى . علشان مصيرك ده مايحصلش لمصرية غيرك . كفاية لحد كده . ريحى الشهيد فى نومته . احنا كده بنحقق الهدف اللى مات عشانه وهو تحرير الأرض ، ولكن بأسلوب تانى . من غير بنادق ولا مدافع ولا طيارات .

سأنهى روايتى عند هذا الحد . ممارسا بذلك بعض حقوق كمؤلف . وان كنت أعرف أن هذا سيثير الفزع لدى رهبان عصرى الذين مازالوا شهداء عادة القراءة التى انقرضت من حياة المتحضرين . ستتحول الصفحة البيضاء فى ذيل الرواية . والتى يملؤها كبار المؤلفين بقوائم اعمالهم الصادرة من قبل أو الاعلان عن أعمال لهم تحت الكتابة والتأليف والطبع ستصدر فى القريب العاجل . هذه الصفحة ستتحول الى ميدان لعلامات الاستفهام عن بقية الأحداث . المناضلون من القراء سيندمون على أنهم أعطوا كل هذا الوقت للرجعية . لكى تنصب لهم فخاخ الكلمات والمواقف . ربما توقف البعض منهم عند منتصف الرواية . رافضا الانهزامية والتشاؤم الذى ملأ أسطرها . يوافقك على أن الحال سيىء ولكن أين العناد المصرى ؟ وسيأتى ناقد أدبى . بدد سنوات شبابه فى احباط لانهاية له . يعمل صباحا موظفا فى إحدى المؤسسات التى يصفها بالرجعية . وعندما يأتى المساء . والليل يخفى حقائق الأشياء . ينقلب بقدرة قادر الى يسارى يتعاطى الثورة . وبهذا فهو يعيش على أموال اليمين ووجاهة اليسار الفكرية . ولكى يحافظ على هذه التوليفة الغريبة يكتب باسم مستعار أحيانا . تحاشيا للمواقف المحددة . وتهربا من الاصطدام بأى جهة . انها الهوامش الكئيبة للحياة الأدبية . ولها منتفعوها وضحاياها .

قد يغير رأيه . ويقرأ روايتى . ان ترك له عصر الاعلام الذى ينغمس فيه حتى القاع وقتا للقراءة . سبب هذه القراءة المفاجئة . يكون بتكليف من مقدمة برنامج حسناء . سيتكلم فيه الناقد الهمام عن الرواية نظير أجر سخى . وان بخل بند الميزانية بالأجر ترك الاستديو فى منتصف التسجيل . ولأنه لابد من الاستفادة من كل شىء بأكثر من وجه سيكتب مقالا عن الرواية يتساءل فيه : وأين جماهير الفقراء ؟ ولماذا أجهضت ثورتهم ؟ يقفز بعد السؤالين الى قوله : ان رؤيا يوسف القعيد زيفت الواقع المختمر بالثورة . ولأن يوسف القعيد برجوازى التركيب والتفكير وطفا على سطح الحياة الأدبية فى زمن تمكن فيه اليمين من وسائل النشر والتقييم والمنح والمنع . بينما هاجرت الأقلام اليسارية الأصيلة . لكى تنشر انتاجها وهو أكثر جودة وأصالة خارج الحدود . لكل هذا آثر القعيد أن يدور حول المشاكل الحقيقية فى ريف مصر من بعيد . دون ان يواجه المشكلة الرئيسية وهى مشكلة الأرض . ان أى عمل ادبى عن الريف لايتحدث عن قضية الأرض . هوعمل مزيف ومدسوس على قوى الثورة . ستسعفه الذاكرة بكلام كثير أعاد الجميع طحنه ومضغه لدرجة ان الكلمات فقدت ملامحها كالقرش الممسوح من كثرة الاستعمال . القفز الى النتائج يتم بسرعة البرق . ستوصف واقعيتى بأنها ليست اشتراكية أو نقدية . أو تقدمية . لأننى لاينطبق على ماكتبه جورج لوكاتش فى السطر السابع من الصفحة الخامسة والسبعين من كتابه عن نظرية الرواية . المفروض أن يتحرك الفلاحون بعد معرفتهم بمقتل الدبيش عرايس من الرجل الغريب . وعلى طريقة الروايات التى تفتت الواقع الى جزئيات صغيرة . وتعيد صبه فى قوالب جاهزة . يحمل الفلاحون الفؤوس ويرفعون الأعلام الزرقاء . مكتوب عليها بحروف من الدم : يا فقراء مصر اتحدوا . ثم يحطمون كل شىء .

للأسف هذا لم يحدث . ولا أعتقد أن مهمتى جعل الناس يغمضون أعينهم محولا الرواية الى مصنع لتصدير الأحلام الجاهزة للقراء الفقراء كل حسب مقامه . قد يكون مطلوبا أن تتحول الكلمات الى محاولة للتحريض . وأن يصبح الحرف فى شكل استدارة الخنجر وحدة السكين وسخونة طلقة البارود .

أذكركم من جديد . ولا أقول للمرة الأخيرة ان الديش عرايس قتل . مطلوب منك هو التأكد أن هناك أكثر من الديش يموتون فى كل لحظة . أرجوكم أن لاتروا فى قتل الديش عرايس أمرا عاديا . وتعزون أنفسكم بطريقة هروبية قائلين أنه يحدث فى مصر أكثر من هذا .

ماحدث غير عادى . وتحويله إلى أمر عادى ويومى متكرر خيانة يجب الوقوف فى وجهها . أريد أن أعذب ضمائركم . وأن أفقدكم القدرة على التمتع بسحر البرجوازية الخفى بهذه المسألة المزعجة :

ــ قتل الديش عرايس .

وصدفة وأولادهاالثلاثة تنتظرهم أيام لاأحد يعرف كيف ستمر والدور على الآخرين .

أولئك الذين يزدادون فقرا كل لحظة فى ريف مصر . ويكتفون بالدهشة أمام تصرفات رئيس القرية والدكتور وحضرة الضابط والعمدة والإقطاعيين القدامى والجدد . فراعنة عصرنا . ومايقع لهم منهم يعلقونه على حافة الغيبيات . يبدو أنهم بلا ذاكرة . لهذا نسوا مثلا من الزمان القديم . يرويه المعمرون من أبناء الضهرية :

تقول كلماته :

ــ قال : يافرعون إيش فرعنك .
ــ قال : ما لقتش حد يردنى .

جدول زمنى بحوادث الرواية :

الجمعة : ٧ يونيو ١٩٧٤ :

* وصول المعونة . ومعها تعليمات زيارة الرئيس نيكسون إلى الضهرية . وقت العصر .
* حضور رئيس مجلس القرية من الاسكندرية .
* عقد إجتماع مجلس القرية الذى لم يتوصل إلى قرار .
* الطبيب يتوصل إلى فكرته . وتتحول إلى قرار خلال مناقشة مع رئيس القرية .

السبت : ٨ يونيو :

* **فى الصباح : إلغاء الإجتماع الموسع الذى كان مقررا عقده** . واستبداله باجتماع ورق صغير . لم يتم بين رئيس القرية وأمين الإتحاد الاشتراكى العربى .
* تكليف الدكتور رسميا بتوزيع المعونة طبقا للأسس التى إتفق عليها .
* صوت المنادى يحمل للجميع ــ الجائعين والمتخمين معا ــ خبر المعونة . الديش يقضى ليلة بطولها يفكر فى قلة البخت والحرمان من المعونة . بينما يحلم موظف مجلس القرية . المتدين بمنصب رئيس المجلس الجديد .

الأحد : ٩ يونيو :

* قبل بكة الشمس سيذهب الديش إلى الحقل للعمل . فى الوحدة . بدأ الدكتور توزيع المعونة . ودخل الموظف على رئيس القرية وقص رؤياه عليه .

* عودة الدييش من الحقل إلى منزله فى القيالة . تركيب البطن . الذهاب إلى الوحدة . صرف المعونة .

* نجاح العملية العسكرية بقيادة الدكتور فى ضبط المعونة فى منزل الدييش والإستيلاء عليها ...

* اعتداء الدييش ، شبه الآدمى ، على آدمى . ولد بعد تسعة أشهر حمل كاملة . إبن الناس والأصول والحسب والنسب حضرة الدكتور . وهو الحادث الذى إهتزت له الدنيا بكل من فيها .

* استدعاء رئيس القرية من الاسكندرية . وكان قد سافر إليها مبكرا . بعد الإنتهاء من عمله مباشرة .

* إرسال الدييش إلى نقطة البوليس فى التوفيقية .
تحويله إلى المستشفى
نقله إلى المشرحة .

* جميع موظفى مجلس القرية يحلمون بشكل جماعى . وفى نفس الليلة . حلما واحدا . رئيس القرية سيرقى إلى منصب ضخم بعد مرور الموكب .

الاثنين : ١٠ يونيو :

* بمجرد وصول رئيس القرية إلى مكتبه . دخل عليه العاملون فى المجلس . كل منهم يحكى حلمه المنفرد . الذى هو جزء من الحلم الجماعى . عقد إجتماعا هاما وخطيرا لمجلس القرية . يتقرر فيه أن التوفيقية جزء من الضهرية . تشكيل لجنة عليا للإشراف على إجراءات الاستقبال . متفرعة إلى لجان فرعية صغيرة

تسافر إحداها وهى لجنة مشتريات العاصمة إلى القاهرة فورا لإحضار الشرائط وجهاز التسجيل والمبيت فى القاهرة .

* وصول الضابط إلى الضهرية . وبدء التحقيق بعد إجتماع بينه وبين رئيس مجلس القرية والدكتور .

الثلاثاء : ١١ يونيو :

* عودة لجنة مشتريات العاصمة .

* سفر مؤلف الرواية إلى الضهرية .

* البدء فى الترتيبات النهائية للإستقبال .

* إنتهاء الضابط من تحقيقاته . وعقد الاجتماع الأخير مع صَدِيقَىْ العمر .

* حضور ضيف منتصف الليل الغامض وإجتماعه مع رئيس القرية .

* رئيس القرية يوقع قرارا بتعطيل كافة المصالح التابعة للمجلس . لكى تشترك فى الاستقبال .

الأربعاء : ١٢ يوليو :

* ضيف منتصف الليل يمر على مجلس القرية ويتسلم المظروف وبه المبلغ المتفق عليه .

* اجتماع فى المحافظة يكشف فيه رؤساء القرى والمدن خدعة ضيف منتصف الليل الغامض .

* مرور الموكب .

* إنقاذ رئيس مجلس القرية من الموت بأعجوبة . وقيامه بإجازة مفتوحة وسفره إلى الإسكندرية .

الخميس : ١٣ يونيو :

* هدوء ما بعد الفرح . أول يوم من الصمت بعد الأحداث الضخمة .
* فى كسل وفتور أرسل الأخصائى الإجتماعى فى طلب صدفة . لكى يبدأ إجراءات صرف الضمان الاجتماعى لها .

الجمعة : ١٤ يونيو :

* حضور الضيف الغريب الذى قدم اليقين حول مصير الدبيش .

السبت : ١٥ يونيو :

* زملاء الدبيش يبدأون رحلة البحث والتقصى . يتوهون فى طوفان الكلمات . وبحر الخطب والمشروعات ..

خريطة بالأماكن التى حدثت فيها الرواية :

الضهرية : مركز إيتاى البارود — محافظة البحيرة :

— منزل الدبيش عرايس . الوحدة المجمعة وبها مكتب رئيس مجلس القرية . المستشفى ، المركز الاجتماعى . فيلا الدكتور . إستراحة رئيس القرية ، جراج سيارة الإسعاف . منزل أصهار الطبيب . منزل أمين الاتحاد الاشتراكى العربى . الحقل الذى كان يعمل فيه الدبيش يوم الواقعة . دكان البقال . المسجد . الحارة .

التوفيقية :

— النقطة الثابتة .المستشفى الأميرى . استراحة الضابط . محطة السكة الحديد . وفيها تم استقبال الرئيس نيكسون بنجاح تام .

القاهـــرة :

— هيئة الإستعلامات بشارع سليمان باشا . وفيها تسلمت اللجنة الأشرطة والأعلام وصور الرئيسين . شارع الشواربى وفيه وجدت اللجنة جهاز التسجيل المطلوب . شارع الهرم . حيث قضت اللجنة ليلتها فى ضيافة المؤلف بمنزله . الكائن بشارع جانبى صغير متفرع من شارع الهرم نفسه .

الاسكندرية :

— منزل رئيس مجلس القرية فى حى شعبى . منزل نور العين وخفق الفؤاد . فى حى سموحة . كازينو العشاق على الكورنيش . دار سينما الابراهيمية . كورنيش الاسكندرية .

كفر الزيـــات :

— ومنها تم تأجير الميكروفونات والشادر والكراسى . وشراء الحمام .

دمنهـــور :

— وفى مبنى المحافظة . جرى اجتماع رؤساء مجالس القرى والمدن بمحافظة البحيرة . يوم الاستقبال صباحا ..

أهم الأمكنـــة :

— شريط السكة الحديد مصر الاسكندرية . ابتداء من مدينة كفر الزيات . وحتى حدود مدينة الاسكندرية . حيث استقبلت محافظة البحيرة الرئيس نيكسون . فى محطات أربع مدن . وعدد لايحصى من القرى . وفاق الاستقبال كل حد لدرجة أن وصفه كاتب تقدمى . بأنه كان استفتاء شعبيا على مستقبل أمريكا فى الشرق الأوسط كله ..

مكان لايعرفه أحد :

— الأصح أن نقول انه مكان لم يهتم به أحد . مساحته متر فى متر ، بقعة ضائعة من أرض مصر . دفن فيها الدبيش عرايس .. الذى دفنه لم يعن نفسه بترك أية علامة فى المكان .. وهكذا تاه الدبيش تماما .. فى أى مكان . ؟ لا أحد يدرى ..

الأسماء والأشخاص والحوادث ليست من وحى الخيال . أى تشابه بينها وبين الواقع لم تخلقه قوانين الصدفة . بل هو تشابه مقصود .

المحتوى

* * *

الآن كلمة سريعة بين يدى الطبعة الرابعة يحدث فى مصر الآن تعليق الدكتور على الراعى ٥
١٧

الكتاب الأول :
حضرة الضابط
رئيس مجلس القرية
طبيب المستشفى
وآخرون
٤٩

الكتاب الثانى :
الدبيش عرايس
١٣٧

الكتاب الثالث
صدفة
نورسته
غباشى
عرايس
الغلبان
وآخرون
١٨٥

صدر للمؤلف :

روايـات

(١) الحداد — كتاب الطليعة — القاهرة — مايو ١٩٦٩

(٢) أخبار عزبة المنيسى — الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١ . طبعة ثانية : روايات الهلال . مارس ١٩٨٥ . ترجمت إلى الروسية وصدرت عن دار الأدب والفن فى موسكو ١٩٧٦ . الطبعة الثانية ١٩٨٤

(٣) البيات الشتوى — روايات الهلال . سبتمبر ١٩٧٤ . القاهرة

(٤) الحرب فى بر مصر — دار ابن رشد . بيروت ١٩٧٨ . طبعة ثانية . دار صلاح الدين . القدس . فلسطين المحتلة . طبعة ثالثة : القاهرة للطبع والنشر والتوزيع ١٩٨٥ . ترجمت الى الروسية وصدرت عن دار الأدب والفن . ثم صدرت عن دار رادوغا ١٩٨٤ . ترجمت الى الأوكرانية وصدرت فى أوكرانيا ١٩٨٥ . ترجمت إلى الانجليزية وصدرت عن دار الساق فى لندن .

(٥) شكاوى المصرى الفصيح — الجزء الأول : نوم الأغنياء . دار الموقف العربى . القاهرة . سبتمبر ١٩٨١ . طبعة ثانية دار المسيرة بيروت . ديسمبر ١٩٨١

(٦) شكاوى المصرى الفصيح — الجزء الثانى . المزاد . دار المستقبل العربى . القاهرة . ١٩٨٣ . دار الوحدة . بيروت . ١٩٨٣

(٧) شكاوى المصرى الفصيح — الجزء الثالث . أرق الفقراء . دار المستقبل العربى . القاهرة . ديسمبر ١٩٨٥

قصص طويلة

(٨) أيام الجفاف — مكتبة مدبولى . القاهرة . دار العودة . بيروت . ١٩٧٣

(٩) فى الأسبوع سبعة أيام — الهيئة المصرية العامة للكتاب . أكتوبر ١٩٧٥

قصص قصيرة

(١٠) طرح البحر — مجموعة قصص . روايات الهلال . فبراير ١٩٧٦

(١١) تجفيف الدموع — الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٨١

(١٢) حكايات الزمن الجريح — منشورات وزارة الثقافة والإعلام . الجمهورية العراقية . ١٩٨٠ . طبعة ثانية . دار الثقافة الجديدة . القاهرة . ١٩٨٢

(١٣) قصص من بلاد الفقراء — قصص قصيرة وفيها نص رواية الحداد . روايات الهلال . مارس ١٩٨٣

(١٤) من يذكر مصر الأخرى ؟ — ستة نصوص قصصية وشهادة شخصية . وزارة الثقافة السورية ١٩٨٤